عبد الله محمد الناصر



حصار الثلج

قصص قصيرة

إنشاء ٢٠١٠

المرحوم / محمد بن على الدعفس

المملكة العربية السعودية

حصار الثلج

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- اشباح السراب (قصص قصيرة)

الغلاف: من تصميم المؤلف
اللوحة: من مجموعة أعمال فرنسية على الزجاج

عبد الله محمد الناصر

حصار الثلج



الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ISBN 1 85516 514 7

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢
بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٢٠٣٣-٦١١٤
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7-221 9347, Fax: 020-7-229 7492

إلى فهد...

صديقاً وفياً

المحتويات

أسراب الحمام ٧
وجه خلف الضباب ١٤
حمار اللجنة ١٩
حصار الثلج ٢٤
الانكسار ٣٥
التنكة ٤٣
الحرمان ٤٦
الاستغاثة ٥٧
حتروش ٦٤
شخير ٧٢
إنه... ليس هو ٧٨
الحذاء ٨٢
بيت النمل ٨٧
نجيب فرحان ٩٢
الثأر ١٠٢
نظرية حسان ١٠٩
دموع في الظلام ١١٧
رئيس التحرير ١٢٦
الأديب ١٣٤

أسـراب الحمـام

تعبر بذاكرتها وهي في مقصورتها: قصة فاطمة بنت النعمان... حيث المرقّش الشاعر الجميل تحمله الجارية إلى قبتها الحمراء، والحراس في الصباح يحدِّقون في الأثر فيقول قائلهم:

هذه الجارية تخرج خفيفة، وتدخل القبة مثقلة، فما الأمر؟!

تمضغ بذاكرتها القصة وتدندن فيذهب صوتها، يرتطم بالبلاط البلوري، ويندلح في زوايا البهو الضخم الفخم، ويتلاشى على وجوه المرايا واللوحات القائمة في المداخل وحيطان الممرات...

هي أميرة هذا القصر ـ كما فاطمة بنت النعمان أميرة قصرها ـ ولكنها مجرَّدة من الإمارة. أميرة على كل شيء إلا على نفسها...

تمارس كل صنوف الأوامر، ويمارس عليها الضجر كل صنوف الرهق والإعياء والضيق...

تطل من غرفتها المترفة... على الحديقة الزاهية بكل ما جادت به الطبيعة من زهر، وأشجار، ورياحين عبقة. تراقب الحمائم وهي تمارس حريتها على أعسب النخلة الواقفة في شموخ... والعصافير وهي تدغدغ بأجنحتها ورؤوسها أوراق السدر، وشجر البنسيان. تندس العصافير في رشاقة وأمان بين الأوراق... وذرات الماء المبثوثة في الفضاء من رشاشات الحديقة ترسم أقواس قزح في وجه الشمس، وأجنحة الفراشات تعلو وتهبط كأنها تراقص تموجات الطبيعة الحالمة.

تضع يدها على خصلات شعرها، ترفعه قليلاً أمام فمها، ثم تطلق زفرات ساخنة حائرة، فيتناثر الشَّعر في كفها وعلى وجهها بشكل فوضوي، يعكس فوضوية عواطفها المرتبكة.

وتطلق نظرها إلى بيت بعيد... يرف فوقه علَم... هناك كادت تكون... ولكن المشيئة أخلفت ظنها، الطمع في أصحاب القصور... فكانت هنا.

هناك حيث يرف العلَم كانت تحلم...

لا تزال تذكر في ذلك اليوم القائض كيف تم نصبه لأسراب الحمام. كان يوماً مجيداً له تاريخه المجيد في ذاكرة الصبا. وإذا كانت الأيام تختلس العمر فإن الطعن في الذاكرة، أو الكيّ في الذاكرة يظل متوقداً متوهجاً مشتعلاً في الروح والقلب...

لن تنسى صبابة ذلك اليوم الصيفي، والعرق يتصبب، وهما معاً، يغرسان العلَم في قبة السطح. كانت أحلام الصبا أشد صلابة وأقوى من قلق التشتت والافتراق... وها هي الآن تعاقر مرارة الاعتقال في قبتها البلورية... أما هو فقد مارس حزنه وتعاطى ألمه المؤقت، ثم رحل مع أول هاجس اغتراب. نفض حزنه من قلبه وذاكرته، ولم يبق من ذلك إلا ما يُبقيه مثل ظل هذا العلَم الذي ظل مركوزاً منذ سنين...

تضع العلَم الغائب في الأفق بين عينيها وتغيب. تسرح بخيالها حيث حرية الخيال هي الشيء الممكن ممارسته في هذا السجن المحتشم.

يعود خيالها إلى المرقش وصاحبته، يا لها من أميرة! ويا للمرقش ولجمال شعره!

وجرد خيالها من حلمه وقعُ أقدام... إنها الدعوة اليومية للغداء... كم تستفز مشاعرها حد الحنق! هذه المائدة في امتدادها الرتيب، وقد رُصت بأنواع الأكل المترف تهيج في ذاتها كراهية لرائحة الأكل وأجواء الفخامة ولباس الخدم والحشم.

تجلس وقد بترت صلة عقلها بما حولها... فالأحاديث رتيبة، وساذجة، ومملة وفي بعض الأحيان مؤذية ومقززة.

الحديث هنا خير منه الصمت. يخيَّل إليها أن جدران القاعات وأعمدتها وأسقفها ملطخة، ومزدحمة، بهذه الأحاديث الضجرة اللزجة... الملل هنا حالة سادية لعينة... بل سلطان متجبر لا تقهره إلا بالصمت.

الصمت حالة استكبار نواجه بها الهراء، والسخف، والرقاعة...

لهذا، فقد قررت لجم كل القنوات... وكل كلام الصحف والجرائد وعهرها السياسي بالصمت. حديث الخيال هو الصوت الوحيد الذي تمارسه في العراء والظلمة وفي النوم واليقظة... لهذا فهي تدمن الوقوف عند النافذة... تسرح في مدى الأفق الممتد من حدود خصلات شعرها، إلى ذلك العلم البعيد الذي يخفق في كف الريح...

حين جلس قبالتها وهي على حافة السرير، كانت أساريره منبلجة كشاطئ فسيح يغسله الموج والزبد.

راح يحدثها عن نجاحه «اليوم» في حصوله على صفقة العمر...

قال لها ذات مرة إنها أجمل وأعظم صفقة عمر في حياته.

ومنذ تلك اللحظة أحست بأنها واحدة من مقتنيات خزائنه التي يودعها في البنوك، أو في صندوق الخزانة.

منذ تلك اللحظة شعرت بفداحة خسارة عمرها... وقد واجهت ذلك بهذا الإذعان السلوكي المحكوم بقانون الطاعة والامتثال... وظلت تعيش حالة انفصال تام بين بدنها، ومشاعرها... تعيش عزلتها الداخلية.

هو غارق في صفقاته، ونهمه، وجموحه نحو الالتهام.

وهي تمارس في هذا العالم الباذخ غربتها وصمتها ودندناتها التي تتلاشى وتغور في مفاصل المداخل والممرات، والغرف التي يقطنها الهدوء.

الحديث هنا همس، والمشي لمس... كل شيء محكوم بقانون المحافظة الصارم... خلافاً لما يدور في ملحقات القصر التي تهيج فيها كلُّ كوامن الصمت والهدوء، والمحافظة.... فتعج بالنشاط غير المتهيب ربما، حيث يتسامح الاحتشام وتقل الكلفة، وتمكن ممارسة «الشيء المكذب حين يذكر»!!!

وكأن هذه الملحقات خارجة عن قانون القصر وطقوسه حيث يمكن ممارسة طقوس ساخنة حادة كأطراف سكاكين مائدة القصر المطرَّزة بماء الذهب.

رائعة هي الأجواء... ورائع هو المكان كمرعى تغبطها عليه الكثيرات من الفتيات... غير أنها تغتاظ وتمقت هذه الغبطة. فهي لم تُخلَق بقرة حيث المرعى والاحتلاب... ولم تُخلَق جوهرة تُقتنى داخل صندوق حريري مترف. فهذا الطنين في رأسها وهذا الحزن الساكن تحت أهدابها... وهذا التوق الجارف الوافد مع النافذة يخفق في قلبها، يُخرجها من خزانة المقتنيات ويحولها إلى علامة استفهام حادة تجرح بهرجةَ الترف...

فكسرة خبز يابسة مع نسمة هواء حرة أجمل وأروع...

حتى ولو في خيمة عارية في العراء... واضطرب خاطرها وترنح ذلك البيت في فمها:

لَبيتٌ تخفق الأرواح فيه أحَبُّ إليَّ من قصر منيف

ميسون، وهند، وأم البنين مع وضاح وصندوقهما.... وصندوقها هذا أو قصرها هذا، الفخم... وكل الصناديق المعَدة بشكل مترف محكم لمثيلاتها...

* * *

حينما كانا يحتسيان الشاي... وجو المكان مفعم بالهواء المكيَّف والعطر الذي قد يشي بالشاعرية والاستتباب...

قالت ونمل الضجر يأكل قلبها:

أي الصفقتين في نظرك أثمن... أنا أم صفقة اليوم؟

رجَّه السؤال وهزَّه... وأثار غضباً مكتوماً في مسالك دمه. فهو في نشوة انتصاره وكسبه وأجوائه الحالمة لم يكن يتوقع مثل هذا السؤال الجارح!!.

قال وهو يحاول أن يكون وجهه أكثر استرخاءً، وسماحة وابتساماً: ماذا تقصدين؟!

ابتسمت على بخار الغيظ في داخلها، واكتفت بهز رأسها حيث تطاير شَعرها كمروحة من ظلام ثم استقر على كتفيها...

* * *

... كانت شمس العصر تلقي على نخل الحديقة ضياء وبهاء... وبهرجة الأصيل تريح النفس...

وكان الحمام يلعب ويتطاير على أعسب النخل في حرية وانطلاق.

قال لها بشكل مفاجئ: صفقة اليوم لك!! فماذا تتمنين؟

ردت وهي نصف غائبة، وكان بصرها عارياً معلقاً في الأفق: أتمنى أن أكون حمامة ترف بجناحيها من أعسب النخلة هذه إلى ذلك العلَم البعيد الذي يخفق قلبه في كف الريح.

وجه خلف الضباب

وهو يخرج من بوابة المطار... كان الفجر الرمادي يمتزج بزرقة البحر وأجنحة النورس، وكانت هي تطل عليه من نافذة ما في هذه المدينة العائمة في غلسة الفجر... كان الطريق المحاذي للبحر لا يزال غافياً يفرك النعاس من عينيه... وكانت طيور البحر تكنس بأجنحتها من الأفق بقايا الليل.

الطريق يغفو بين العمائر، ويتثاءب حين يلتوي إلى البحر... وعربات تعبره في هدوء يشبه الصمت. كان يشم رائحة البحر، ويشم رائحة شعر غجري فيه نكهة المراعي والحقول.

وظل وجهه مشرَّعاً للفأل... في زاوية من مقهى في قلب المدينة فاجأه وجهها... كان ذلك الوجهَ المطل من تلك النافذة في المدينة العائمة في غلسة الفجر... وكان اللقاء حاداً كشفرة جارحة!!

راح يسأل: هل أنت... أنت يا من شددتُ إليك الرحال؟ هل التحايا تبدأ عَتَباً؟

وراح يسأل نفسه: هل أنا أجازف بكبريائي في سبيل إحساسي الطاغي بالصدق والنقاء؟

راحت الموجات في يوم مشمس آخر يطارد بعضها بعضاً حتى ترتد على الساحل الصخري فيسمع زوبعة الأمواج حين تلتحم بالصخور وهو ينتظر اللقاء.

... جاءت وفي عينيها البدويتين تلوح دروب السفر. وجهها اليوم أكثر سماحة. قال في نفسه: هي هي التي كنت قد عهدتها... نقية كماء الغمامة... صافية كقطرة الطَّل... برغم غبار الحزن المتناثر على محجري عينيها... فقد كان نشيدٌ عذبٌ صامتٌ يغني أغنية للفأل والحلم برابية مقمرة مضيئة بالحب والجمال....

وظلت الموجات يلاعب بعضها بعضاً والأحاديث تمتزج بالبحر المشمس، والوجْد المستيقظ... وتتشعب طرق السفر في عينيها البدويتين، وهو يرحل في صحراء يعرف جيداً أنه لن يتوه في مسالكها....

وكانت لحظة يأتي فيها الذي لا يأتي... كانت لحظة امتزج الليل فيها بالنهار في لهفة خاطفة، لا يدري أكان إعصاراً مَجِيداً... أم حلماً أسطوري الملامح؟!

... ونَاسَ في داخله هاجس الرحيل. حزم مواجعه وحقائبه للسفر... وغابت المدينة كُتلةً من الضوء في قلب الليل.

الطائرة تجوب ليل الصحراء... وجهها يطل من نافذة ما في تلك المدينة...

وكان يحلم بأن يعود يغسل رجليه بماء البحر على الصخرة ويستمع إلى نشيد الموج الأزلي، ويصغي إلى لفتات ذلك الجسد الممشوق الذي له رائحة المسك والعنبر.

* * *

والطائرة تجوب ليل الصحراء... راح يصغي إلى أصداء أصوات الفرسان وأناشيدهم في براريها...

لله هذه الصحراء! كم هي واضحة وغامضة، وقاسية، وصلبة، ولكنها أعظم أكاديمية تُعلِّم الفروسية والصدق، والعشق والحب المطلق.

الصحراء هي الكائن الذي لا تتعثر فيه أرجل الجياد... ولا قوافل الريح. والفارس لا يغدر، ولا يطعن في غفلة.... الفارس حتى ولو أكتسى بغبار المعركة فإنه لا يخون سرجه... لا يترجل عن فرسه في اللحظة الحاسمة.

ظهر وجهها متسللاً إليه، والطائرة تنحني للهبوط... وحين ترجلت الطائرة غاب وجهها وكأنه كان يودعه...

* * *

عبر الأثير وبعد حين جاءه صوتها مُنعشا فيه عذوبة الموسيقى وصخب الأمواج، فيه لمعان البحر وحرارة

الشمس... وفيه ذلك الإيقاع المشاغب الصاخب، المفتعل الذي يحدثه تلامس الماء بالصخور. كان الإيقاعَ الأزلي الذي يربط خيوط الحياة ببعضها... ذلك النشيدَ الذي يكسر الفتور والتراخي ويوقد جذوة الشوق.

وظل ذلك الصوت العذب رواءه كلما أحس بعطش الروح.

لكن عصفوراً مفاجئاً أغبر منتوف الريش جاء في صورة «رسالة»، يقع على نافذة القلب... عصفور له جناحان من مسامير جارحة. أيمكن أن تتحول العصافير الملونة الجميلة العذبة التغريد إلى علب مفخَّخة بشفرات الشك والوهم، وروائح الوسوسة؟!

وأطل وجهها من تلك الرسالة القادمة من المدينة الضبابية. كان وجهاً غير واضح الملامح... ضبابي التفاصيل، ربما لأن الضباب لا يزال يكسو وجه المدينة... وربما أنه يكسو قلب المدينة!!

... وكانت ضحكة مدوية تصدر عن قلبه في قلب الصحراء. كانت أشبه شيء بالصهيل، ربما أسفاً، وربما حزناً على ذلك الوجه الوديع الضائع في اهتزازات ضباب الشك اللعين.

أبَعْدَ كلِّ مواثيق الوفاء ينبت لطائر الشك جناحان؟

لماذا وجوه أهل المدائن البحرية مكسورة ومسكونة بسوء الظنون؟ ولماذا وجوه أهل الصحراء ينبعث منها شُعاع الثقة واليقين كشمس حارقة؟

ارتبك ضوء الصحراء أمام الجسد الرمادي للمدينة... وجهان متقابلان: وجه منقوش على الصخر... ووجه منقوش على زبد البحر.

وكان نشيدٌ يأتي من بعيد:

«يا ياقوتةَ القلب...

اخرجي من عتمة هذه المدينة

سافري إلى حقول الضوء ودروب النور

إني أخاف أن يأكل قلبَك الشكُّ

وصدأُ البحر والضباب».

واندمج الصهيل بالنشيد في ذلك الفضاء المفتوح.... وكانت الريح تَهِبُ جسدها لعناق الضوء... واحتمال رفقة المسير إلى مواطن الشمس، ومواسم المطر...

حمـــار اللجنـــة

يُحكى أن رجلاً اشترى حماراً فقيل له: «إن حمارك هذا به غفلة، والغفلة تُعتبر غباءً، والغباء في الحمير عيب مردود، وإن البائع غشك...». فذهب الرجل الى القاضي شاكياً، واستدعى البائع للتأكد من دعوى المشتري حول غباء الحمار... فقال البائع يا سيادة القاضي: إن خبرتي في الحمير ليست جيدة. ولكني سأترك الأمر لك فإن رأيت حماري غبياً رددتُ المبلغ، وإن كان ذكياً فالبيع يُعتبر تاماً...

فقال القاضي: حسناً سوف أنظر في الأمر.

وفكر القاضي في الأمر كثيراً، ولكنه لم يهتد الى مخرج. وأخيراً رأى أنه من الأفضل تشكيل لجنة لتعطي رأيها في الحمار.

ورفع الأمر إلى الجهات المختصة، التي بدورها شكلت لجنة...

وفعلاً ذهب ملف الحمار إلى اللجنة حيث درست وضع الحمار دراسة طويلة، وعقدت جلسات متعددة، وثار

بين أعضائها لغط وجدل طويلان وتعاقبت الجلسات التي صُرف عليها الكثير من المال والوقت.

ورأى رئيس اللجنة أنه من الضروري استدعاء «البائع» لأخذ أقواله، فاستحسنت اللجنة الرأي. وفعلاً تم استدعاؤه، وسُجِّلت أقواله حول سلالة الحمار وسلوكه، ورغباته، وتاريخ ميلاده... لكن اللجنة برغم هذا لم تصل الى رأي موحد وظل الخلاف قائماً بين أعضائها حتى تعب المشتري من كثرة ما يقود حماره إلى مقر اللجنة صباح مساء.

وأخيراً، اتفقت اللجنة على رأي استحسنه جميع الأعضاء وهو عرض الحمار على طبيب بيطري.

ورفعت اللجنة محضراً بالرأي المقترح للجهة المسؤولة التي استحسنت بدورها رأي اللجنة.

لكن المشتري اعترض على ذلك مدَّعياً أن رأي طبيب واحد قد لا يكون في صالحه، وطلب تشكيل لجنة من البياطرة لدراسة وضع الحمار. وفعلاً شُكلت لجنة من البياطرة المختصين حيث تم فحص الحمار فحصاً مخبرياً، وأخذت صوراً مقطعية لمخه، وبرغم ذلك ثار جدل طويل بين الأطباء البياطرة حول النتائج، واختلفوا اختلافاً بيِّناً في قراراتهم.

وارتأوا إعادة الفحوصات مرة أخرى، وفعلا أعيدت ولكن الاختلاف ظل قائماً.

تسرب الخبر إلى وكالات الأنباء ووسائل الإعلام فتسابقت الصحف إلى نشر الموضوع مع صورة الحمار على صفحاتها الأولى، وصارت تنقل قصة الحمار وتتابعها أولاً بأول، فذاع الأمر وشاع بين الناس...

وانبرى كثير من الكتّاب الى الوقوف بجانب المشتري المسكين، وأبدوا معه تعاطفاً ظاهراً، وشنوا حملات مركزة على ظاهرة الغش في بيع الحمير، بل اعتبروا أن الظاهرة في حد ذاتها نوع من أنواع الفساد والخطر وأن عواقبها ستكون وخيمة على المجتمع، فسوف تختل الأمانة وتهتز النزاهة، وتُفقَد الثقة...

ولمع أحد الصحافيين الصغار الجدد وأثبت مقدرة فائقة على تغطية أخبار الحمار فكوفئ على ذلك بأن عُيِّن رئيس تحرير إحدى المجلات السيارة.

أما عامة الناس فقد انشغلوا بقضية الحمار وما أثير حولها من جدل، وراحوا يتابعون بلهفة وحماسة ما ستنتهي إليه فصارت شغلهم الشاغل بل وقضيتهم الأولى.

وانقسم الناس الى قسمين بل موقفين؛ موقف إلى جانب المشتري المغبون، وموقف إلى جانب البائع الذي يرون أنه لا ذنب له في غفلة الحمار.

وبسبب الضجة الإعلامية فقد راجت الصحف فصار من النادر أن تعثر على صحيفة بعد التاسعة صباحاً!!

أما المثقفون فقد انهمكوا في قراءة ما كُتب عن الحمير قديماً وحديثاً، فقرأوا كتب التراث المعنية وبالذات كتاب **الحيوان** للجاحظ.

أما كتاب توفيق الحكيم **حمار الحكيم** فلم تبق منه نسخة واحدة، بل إن الناس صاروا يصوِّرونه ويبيعونه في السوق السوداء.

وتعب المشتري المسكين كثيراً، ولحق به أذى عظيم. حيث صار يحمل الحمار من مستشفى البهائم ثم إلى حظيرته كل يوم. واضطر إلى الاقتراض من أجل نفقات الفحص، والغذاء، وأجور النقل اليومي... وعندما أرهقه التعب ذهب الى القاضي مستجيراً طالباً البحث عن حل لقضيته التي طالت وتعقدت. ورأى القاضي أنه من الأفضل أن تتدخل الشرطة، وفعلاً أحيلت الأوراق كاملة بما فيها تقارير اللجان إلى الشرطة، فاطّلعت على المحاضر، والتقارير، والآراء، وبعد دراسة مستفيضة، رفعت الأوراق إلى القاضي بمقترحين أو رأيين لا ثالث لهما:

أولهما أن تُبعَث التقاريرُ الطبية إلى أحد المستشفيات المتخصصة في الغرب لمعرفة رأيه النهائي والقطعي في ذلك على أن يُسجَن الاثنان على ذمة القضية إلى أن تصل النتائج. أما ثانيهما فأن يطلب القاضي من أحد الاثنين التنازل.

سُرَّ القاضي وابتهج بذلك، وقال: هذا والله نِعْم الرأي.

طلب القاضي الخصمين للجلسة النهائية، وكانت الصحف قد علمت بذلك... فاجتمعت حشود من الصحافيين والمثقفين وعامة الناس عند باب المحكمة انتظاراً للنتيجة.

وعندما جلس الخصمان أطلعهما القاضي على رأي الشرطة وأن عليهما أن يختارا أحد الأمرين.

وجم الاثنان قليلاً وظل القاضي ينظر إليهما في لهفة ليسمع رأييهما. فرفع البائع رأسه إلى القاضي وقال: هل يمكن أن أرى حماري! قال القاضي: بكل تأكيد. وأُدخل الحمار فإذا به قد امتلأ صحة وعافية، وزاد بياضاً، وصار أكثر حيوية ونشاطاً... قال البائع: سيادة القاضي إني أقبل أن أستعيد حماري وأُرجع المبلغ للمشتري.

تهلل وجه القاضي وقفز المشتري فرحاً وتعانقا... إذ لم يصدقا أن صاحب الحمار سيقبل ذلك.

وخرج صاحب الحمار يقود حماره من بوابة المحكمة، وحين أطل اشتعل بريق كاميرات التصوير وتعالى الهتاف والتهليل من الجماهير الغفيرة لعدالة الحكم!!

وهمس صاحب الحمار في أذن حماره قائلاً:

أهلاً يا حماري العزيز. أقسم إنك أذكى وأعقل مخلوق في هذا البلد...

حصـار الثلـج

فوق تلة مكللة بالبياض في شمال اسكتلندا تطل على بحيرة «لوخنس»، حيث تُنسَج الأساطير حول ذلك الكائن الخرافي (Monster)، كان الثلج يهبط كالقطن المندوف... كل شيء هنا محاط بالبياض، ولكنه ذلك البياض الشاحب الذي يُشعرك بوطأة القيود على حريتك... بل ويقيد أنفاسك.

جميل أن تشعر بأنك في عالم يفصلك فصلاً حاداً وصارماً عن عالمك المعتاد لأنك قد تكون محتاجاً إلى أن تكون نائياً وقصيّاً في بعض حالاتك... وأوقاتك.

أنت ابن الصحراء، والشمس والرمل... ستتلبسك حالة من حالات الذهول الذي لا تستطيع دفعه، وعينك تسرح في هذه الصحراء الممتدة من الزمهرير الثلجي الذي أحرق كل أخضر، من خلال نافذة زجاجية تتمترس خلفها خوفاً من غائلة الزمهرير الكالح.

في بهو الفندق المحاذي للبحيرة تنعشك رائحة الحطب المنبعثة من موقد النار. إن ألذ وأشهى ما في هذا المكان

هو هذه النار التي تتشعب ألسنتها، وتلتف أحياناً داخل الموقد فيتحد دخانها متصاعداً. هناك تتدفق الحياة في شرايينك، وتخبو وحشة الزمهرير الأبيض، الذي يعتقل نشاطك ويحيلك إلى هذا المخبأ المسمَّى فندقاً.

كانت طقطقات النار في الخشب... والشرر المتطاير في فراغ الموقد تبعث في النفس نشوة خاصة... تماماً كما صوت تساقُط قطرات المطر فوق صحراء جافة.

هذا الفندق متواضع ولكنه جميل في تواضعه، لا يثيرك ما فيه ولكنك لا تجد عيباً أو نقصاً. أكثر ما يشدك في البهو لوحة ضخمة لجبل ثلجي فوق قمته ثلاثة وعول أخرجت رؤوسها تطل عليك... حتى يُخيَّل لك أنك لا تنظر إلى لوحة بل تطل على منظر حقيقي من نافذة.

في هذه اللحظة لا شيء يثير الاهتمام سوى النار في الموقد وشيخ عجوز قعد يتلذذ بوهجها ويتصفح جريدة، وزوجته مسترخية وقد وضعت ساقاً على ساق وأسندت ظهرها إلى المقعد. واستسلمت لنعاس دافئ لذيذ حتى صار رأسها يخفق فتجذبه إلى أعلى وهي تفتح عينيها في صعوبة. جميل أن تتصالح الشيخوخة مع متاعبها في مثل هذه المتعة.

في الركن المقابل جلست للتو امرأة طويلة ترتدي معطفاً جلدياً أحيطت ياقته بفرو من النوع الناعم الثمين،

جلست وقد وضعت علبة دخانها أمامها، وراحت تدخن بشراهة... وضعت رجلاً على رجل. رجلها اليسرى ثابتة على الأرض واليمنى قلقة تحركها بعصبية واضطراب. ما إن جلست برهة حتى نهضت مندفعة نحو التليفون المثبت على طرف طاولة الاستقبال.

كانت عصبية قلِقة منفعلة، تركض نحو التليفون ثم تعود لإحراق المزيد من التبغ في جوفها.

قطع الصمت نعيق غراب وقع على أحد أغصان الشجرة الضخمة العارية الشاحبة المكسوة بالثلج. أخذ يتفحص الغراب وهو ينعق. كلما نعق خرجت كتلة من الدخان من منقاره، وتساقطت ـ كالريش ـ كتل الثلج الرقيقة من الغصن الذي يقع فوقه. عجيب أمر الغراب. طائر قبيح لعين يعيش في الصحراء الجافة الملتهبة وفي الأجواء الثلجية القاتمة المحرقة... ما سر هذا الطائر النكد القبيح. ربما إن الله خلقه لحفظ التوازن بين القبح والجمال. كلما نعق اشمئز، وانقبضت نفسه وتمنى أن يمصع رقبته. يا إلهي! غراب ينعق وامرأة مضطربة، وعجوز أخذت في الشخير. وزمهرير يكسر عظمك وإرادتك... يا لها من رحلة!

وأمام النافذة تجمعت عصافير فوق شجرة عارية... كساها الثلج فتجمدت أجنحتها حتى يخيل إليك أنها تماثيل من كرستال.

في هذه الآونة أطلت طائرة من النوع المروحي الصغير تحلق في سماء البحيرة على ارتفاع منخفض، وترمي ببالونات حمراء وصفراء وقد رُسم على بعضها صورة ذلك الكائن الأسطوري (Monster) وكأنها تريد أن توقظ النشاط في أنفس السواح المحاصَرين في الفنادق المطلة على البحيرة، وتُشعرهم بأن هناك حياة حولهم. كانت الكرات تنط وتتقافز فوق سطح البحيرة التي صار وجهها قرصاً صلباً من الثلج. الكرات تتدحرج وتتحرك حسب حركة الريح. وكان المنظر يثير في النفس شيئاً من السعادة والإحساس بالانطلاق.

لكن ذلك لم يكن ليشغله عن الفتاة المضطربة وهي كقطة برية وُضعت للتو في قفص. التليفون فوق طاولة الاستقبال هو مركز الحياة الوحيد في هذا الفندق، وهو نقطة الاتصال بالعالم، فانقطاعه يعني الانقطاع عن الحياة نهائياً. فالثلج هنا يبني سدوداً وحواجز تمنعك من الاتصال بأي شيء... ولأول مرة يشعر بأن رجليه لا قيمة لهما.

جلس يحتسي قهوته ويراقب انفعال المرأة... انفعالاً أيقظ في داخله شيئاً من الحيوية والانتعاش... وجد شيئاً يلهيه، ويسليه، في خضمِّ هذا الحصار القسري القاتم.

لكن ذهنه راح مرة أخرى يركز على التليفون. هذه الآلة الصغيرة هي المفتاح السحري للدنيا! إنه يستطيع أن يتحدث

مع أهله من هذا المكان النائي المحشور في قلب الثلج! كيف له أن يتخيل لو عاش في هذا الجو الموحل المحاصَر بلا تليفون؟! لولا التليفون لكان هذا المكان مقبرة حقيقية ليس فيها إلا الأشباح ونعيق ذلك الغراب اللعين. عجيب أمر هذا التليفون، وأعجب منه ذلك العقل الذي اخترعه! العقل! العقل! طبعاً لم يكن عقلاً متجمداً كهذه البحيرة أو كهذه الجبال البيضاء... ومن المؤكد أيضاً أنه ليس عقلاً سائلاً مثل عقولنا نحن أبناء الصحراء. هل العقل السائل جداً عقل رديء لا يستطيع أن يصنع أو ينفع؟!

إنه سؤال جدير بالطرح. نحن أبناء الصحراء لم نصنع شيئاً ولم نبدع شيئاً. كل صناعتنا هذا الكلام السائل اللزج، وهذه الجعجعة التي تشبه نعيق ذلك الغراب... أصحاب الثلوج، أو العقول الثلجية، هم أصحاب الابتكارات والانجازات. كل ما في الكون من مبتكَر جاء في أصله من عندهم. هذه هي الحقيقة بلا مكابرة... أما نحن بني البشر فكالغربان بين بقية الطيور التي لا تؤكَل ولا تُقتنى ولا تصلح لأي شيء. حتى ريشها لا يُنتفع به، وليس لديها إلا هذا النعيق المزعج...

ربما إن هذه نظرية تحتاج إلى بحث ودراسة، وربما إنها دُرست فعلاً في جامعاتهم المتقدمة... وربما إن النتائج مسجلة. ولكننا لم نطّلع عليها...

نحن لا نطّلع على شيء، ولا نحاول أن نطّلع على شيء. يخيفنا الاطّلاع على الأشياء ويملأنا بالوحشة مثلما يثير وحشتي الاطّلاع على منظر الثلج من هذه النافذة.

شعر بأنه أسرف على نفسه وعلى أمته بهذا الجحود الظالم، وبأن هذا كله نوع من أنواع جَلد الذات للهروب من مواجهة الأشياء ومناقشة الأسباب.

كانت «هي» تقف خلف النافذة تعبث بخصلات شعرها، وتدخن بشراهة... طلبت كوباً من القهوة وراحت تحتسيه برغم حرارته بشغف انتقامي... كان دخان الكوب الساخن يمتزج بدخان السجائر في جو ساخن بالتوتر برغم هذا الثلج القطبي الشرس.

ماذا بهذه المرأة الملهوفة المسروقة من زمنها وسعادتها؟ ما الذي جعلها مستوفزة هكذا؟ ما هذه الثورة، والصخب، والبرد هنا كفيلٌ بأن يخمد بركاناً؟!

كان فضولياً في صباه، ويحشر نفسه حشراً في مثل هذه المواقف. وكان حينها يعتبر أن الجرأة سلاح ينفع ولا يضر أبداً... بيد أن هذه العادة قد خمدت لديه، أو هو أهملها تبعاً لظروف الحياة، وعامل النضج... لكنه أحس فجأة بأن تلك الغريزة استيقظت لديه، وساوره إصرار عجيب على أن يقتحم سر هذه المرأة.

حاول أن يكبح جماح رغبته، ولكنه وجد أنه أمام ذلك

مسلوب الإرادة. يبدو أن تلك الغريزة الهامدة لم تَمُتْ، وإنما كانت نائمة فاستيقظت بعنف، كما ذئب مروض انتابته شراسته في لحظة نداء غريزي....

مشى إليها. كانت تفصله عنها طاولة صغيرة متصلة بمكتبة لها رفوف مثبتة في الحائط... على الطاولة طائر «فزنت محنط» وسنابل قمح يابسة... وفي الرفوف أشياء أخرى منظمة، سنجاب محنط، دمية من برونز لطائر القطا الاسكتلندي... وكتب يبدو أنها قديمة وإن كان لم يتثبت من قِدَمها فقد كان بصره - برغم طوفانه حول تلك الأشياء - متشبثاً بهيئتها «هي».... وقف إزاءها واستأذنها في الجلوس. نظرت إليه وهي ذاهلة، عقدت المفاجأة لسانها. لم يعطها فرصة للرفض أو الاستجابة، وإنما جلس وهو يدني كرسيه معه نحو الطاولة ليقترب منها...

كانت بقايا عطر نسائي عذب تتسرب من معطفها. ظهرت على ملامحها تعابير متباينة مختلفة، تعابير الدهشة، والاستغراب، والرفض، وربما الكراهية، ولكنها برغم ذلك - ومن خلال ملامح توترها - ابتسمت ابتسامة غامضة كتلك الابتسامة التي نطلقها في لحظة الغيظ أو الاستهجان!!

قال لها معذرة لتطفلي. أنا أعرف ذلك... وأنا مثلك متوتر وقلِق ومكروب بهذا الحصار الثلجي الشرس... وبهذه الكآبة المُطْبِقة على هذا المكان... ومحاصَر بقلقك

واضطرابك فاعذريني. أنا إنسان مجبول على حساسية شديدة التوتر لما يحيط بي. وتوترك آلمني وآذاني بحق. في هذا المكان المنزوي من العالم نشعر بأن إنسانيتنا تنصهر أكثر فنكون أكثر التحاماً واقتراباً إلى بعضنا...

صدقيني أنني شقيت لشقائك، وها أنا أحاول أن أساعدك ما وسعتني قدرتي... أو أن أسليك حتى بسخفي وتطفلي...

انطلقت أسارير وجهها رويداً، رويداً، وانتابها شيء من الهدوء. ربما إن سؤالاً جاداً تحفز في داخلها حول هذا الشخص الغريب، الذي يتحدث بهذا الشعور الإنساني المكثف بالنبل...

كان قلقها ينكمش، وغضبها ينطفئ. بدأ الدفء ينسكب في عينيها كما تتدفق ينابيع في أعماق بئر جافة. صار التوتر ينحسر عن ملامحها كما ينحسر الثلج عن غصن دبت فيه حرارة الربيع.

دبت في وجهه نشوة الانتصار ليس بسبب ترويض هذه الفرس المسكونة بالجموح المتوحش، ولكنها نشوة الظافر المعتد بثقته حينما يقامر ويغامر بها في تجربة خطرة...

وسط ذهولها طلب كوبين من القهوة، وفي استسلام مطلق راحت تحتسي القهوة وتستمع إليه. قال لها: آسف لأنني لم أقدم لك نفسي، ولكن لا بأس فنحن هنا يجب

ألا نقدم أنفسنا بأسمائنا بل بذواتنا وبعواطفنا. في مثل هذه المواقف نكتشف أنفسنا ونتعرف إلى بعضنا بحسنا وهاجسنا الإنساني، وليس بأسمائنا الوصفية المجرَّدة التي تحفظنا من الضياع في زحمة كوننا المضطرب المحموم...

اتسعت حدقتاها دهشة واستلت سيجارة من علبة دخانها وقدمتها له. قال لها: أنا لا أدخن... وإن كان دخان المواقد يغريني ويغمرني بالدفء واشتهاء الحياة في ليالي الصقيع...

بحاسته التي لا تخطئ أدرك أنها تهيّئ نفسها لاكتشافه والتعرف إليه... تمهد لذلك، بتلك اللفتات الجسدية التي تسبق الكلمات...

لكن موظف الفندق قطع تركيزها حينما وضع بطاقتها المالية أمامها وهو يقول: آسف يا سيدتي، لا فائدة...

انتابها الذعر وركبها التوتر وطاش بها القلق من جديد. صاحت بأعلى صوتها ماذا أفعل؟! كررت بصوت منتحب ومرتعش ماذا أفعل؟ يا إلهي ما العمل؟ ثم انكمشت على نفسها وأقبلت على حالة شبيهة بحالة الانهيار.

اقترب منها وهو يقول: ما الأمر؟! قولي لي... نظرت إليه وقالت بحسرة:

الأمر أصعب مما تتصور وليس بِمقدورك حله!! بطاقتي المالية متعطلة لسبب أجهله، والبنك مغلق... كما تعلم نحن

في عطلة. وصديقي في بلدي لا يرد على التليفون، وأنا حاجزة هذا المساء للسفر إلى وطني. ستأتي سيارة خاصة باقتحام الثلوج لنقلي بعد ساعة إلى القطار ومنه الى المطار. إذا لم أسافر تضيع التذكرة ويضيع الحجز ويضيع عملي. وقد أمضيت خمسة عشر يوماً لم أدفع أجرتها. هل أدركت مدى الكارثة؟! ألم أقل لك إن الأمر أسوأ مما تتصور؟! وانخرطت في نوبة من البكاء.

تركها وانسحب!! وبعد لحظات جاء يحمل كوبين آخرين من القهوة.

راح يسليها ويصر على أن تهدّئ من روعها وتشرب القهوة...

أقبل محاسب الفندق فانقبض قلبها وركبتها حالة من التوتر والضعف. انحنى لها وهو يقول اطمئني سيدتي ستسافرين في الموعد... نظرت إلى وجه المحاسب في استغراب أشبه بالاستنكار!! التفت المحاسب مشيراً بيده وهو يقول لها بأن السيد قد تولى الأمر!

حدقت فيه بدهشة وذهول وكأنها تحدق في ذلك الكائن الأسطوري وقد انشقت عنه البحيرة فجأة... وقبل أن تنطق قال لها: لا عليك. قد نلتقي يوماً، وقد لا نلتقي!! هذا ليس مهماً. المهم أن لديَّ مالاً ينقذك من هذا الموقف. الأمر أسهل مما تتصورين. المال ليس أثمن من الدم المتشابه

النابض في عروقنا معاً. راحت تتابع النظر إليه في ذهول، وهو يبتسم لها ابتسامة مشرقة كإطلالة شمس تفيض من الشرق على تلال الثلج والصقيع...

الانكسار

خرج في الشارع الطويل المتلوي الذي يتسع أحياناً ويضيق أحياناً ويتعرج بلا نظام كحية ميتة... سار حتى اختفت أضواء المدينة، والليل معتم والدنيا هامدة إلا من نباح كلاب يأتي من بعيد. لا شيء يتحرك في هذا الشارع المتلوي... لا شيء سوى الهدوء والهمود وأضواء النجوم المعلَّقة كالقناديل، التي تظهر أحياناً قوية وهّاجة وأحياناً تختفي وراء أعالي البيوت إلا إذا رفع رأسه فإنه يراها فوقه وكأنها تسير معه...

سار في الشارع الطويل، وفي صدره تحتشد مواجع وهموم تتدافع ساخنة كأمواج البحر العاتية حينما تصطخب ثم ترتطم بالصخور لتعود مرة أخرى أقوى ارتطاماً وعنفاً... مشى وهو لا يدري إلى أين يتجه. لم يكن يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول، بل لم يعد قادراً على أن يعي ما يدور في رأسه.

سار وكأن السير هو اللغة الوحيدة التي يستطيع أن

يتحدث بها... فكل شيء حوله صامت... كل شيء في داخله صامت، ولكنه ذلك الصمت القاهر، المتأزم الصاخب القاتل...

سار وكأنه يخاف أن ينفجر مما به... وكأن خطواته في الطريق هي: الرئة التي يستطيع أن يتنفس بها من هذا الضيق والألم...

لسانه كان جامداً ثم فجأة راح يردد بيتين ولا يدري أهو يعيهما وهل هما جاءا من عقله الحاضر أم الباطن أم من إرادة اللسان وتلقائيته؟

وجد نفسه من حيث لا يدري خارج البلد. فقد قذفه الطريق الصامت إلى هذا الفضاء الرحب حيث لا شيء إلا الصمت... الصمت المكثف القاطن في تراب الأرض في قنوط وجفاء...

وجد نفسه داخل كرة هائلة من الصمت.... والأرض كتلة من الخشوع الذي يشبه الموت... والسماء قبة نُسجت من النجوم...

الحياة فوق رأسه في السماء تنبض بالتهاويل والإشعاع... أما الأرض فميتة إلا من نبض قلبه ووقع قدميه...

* * *

كان قبلُ قد فكر طويلاً إلى من يذهب؟!

استعرض أصحابه واحداً واحداً. سجلهم في ذاكرته واستعرضهم في ذهنه بتمهل ودقةٍ انتقاء.

منذ ثلاث ليال لم ينم. كان يفكر في أمره الذي أهمه وفي حاجته التي داهمته دونما توقع... والأمر حَزَبَه وشَدّ عليه... ولا سبيل إلا الأصدقاء. وأصبح بين فكي حاجته، وامتحان أصحابه...

هو لا يريد أن يريق دم وجهه... لا يريد أن يفشل فشلاً يكسر ظهره... هو يعرف أصدقاءه تماماً أو هو يظن ظن المتيقن أنه يعرفهم ولهذا رتبهم واستعرضهم من ناحية الأولوية في ذهنه تماماً كما يستعرض الفارس سيوفه قبل يوم المعركة.

واستقر أمره على «أبي سعد»، فهو مرشحه الأول... عرضه في نفسه مراراً. حاول أن يتركه إلى غيره إلا أنه كلما رجع إليه شعر براحة وطمأنينة، فعقد العزم على الذهاب إليه، ونام ليلته قرير العين بعد أن اتخذ قراره.

ساوره شعور بأنه نجح في معركته... نجح في تغلبه على قلقه تماماً كما يفعل التلميذ عندما يقدم ورقته في الامتحان بعد أن جمع وطرح النتيجة في عقله وارتاح لإجابته...

* * *

اتصل به هاتفياً وقال له سأزورك الليلة... رحب أبو سعد ترحيباً حاراً... وبعد صلاة العشاء جلس الرجلان. تحدث أبو سعد يميناً وشمالاً، وغرّب، وشرّق... تذكرا كل شيء وطرقا أمور الحياة من جميع جوانبها. كان حيناً يندمج في الحوار مع صديقه... وأحياناً يأخذه الصمت... صمت من يريد أن يتجهز للحديث الخطر، ولكنه يكبح صمته ويستسلم للحديث مع صديقه وكأنه بذلك يُفرغ شحنات خوفه ووجله من صدره ليصبح قادراً على طرح مشكلته في اطمئنان.

وطال الحديث وامتد الليل وهو يريد أن يهجم بالحديث فيعجز...

لم يدخل هذه التجربة طوال حياته...

لم يطلب وجاهة، ولا قرضاً، ولا وساطة من أحد... كان عزيز النفس... أراد أن يقتلع الحديث من أعماقه وكأنه مربوط بسلاسل وأغلال في قاع وجدانه.

تتابعت أنفاسه، وزادت دقات قلبه، وأخذ به القلق والوجل كل مأخذ... راحت دقات قلبه تقرع أذنه وتنزّ في صدره وأخيراً كتم أنفاسه وتغلب على قلقه واندفع وكأنه يقفز الى قلب معركة قائلاً: «أخي أبا سعد... يقول المثل الصديق عند الضيق... وأنا محتاج ومكروب و... وراح يحكي له قصته ووجهه منكّس إلى الأرض يذوي ويتلاشى،

يصفرّ ويعرق ويذبل حتى كاد ينطفئ... وحين كف عن الكلام. نظر إلى وجه أبي سعد... فإذا بابتسامة مشرقة يكللها هدوء يشي بالطمأنينة والثقة.

نهض أبو سعد... دونما كلمة... أما هو فقد أخذته نشوة الانتصار والظفر فلم يخب ظنه في صديقه أولاً، وهذا هو المهم... وكربته قد فُرِجت ثانياً.

وراح يستعرض في ذهنه هموم الأيام الثلاثة الماضية التي كانت تحترق في صدره... وها هي كنار أطفئت بماء بارد فهمدت وخمدت ولم يبق إلا ظلها في داخله.

التذّ خاطره بنخوة صديقه، ونجدته السريعة. وإن كانت تلك الغبطة مشوبة بُذل وبخجل المسألة، ولكنه راح يغالبها بأن أبا سعد ليس صديقاً فحسب... بل فوق الأخ والصديق. ارتاحت خواطره وراح يتنفس في ارتياح ملء رئتيه كمن يطل على بحر شاسع مفعم بالشمس والريح...

وظل في مكانه وقد ثمل بنشوته وراحت اللحظات تومض كأضواء حانية تضيء داخل وجدانه، ومضت اللحظات وراح يترقب بسمعه وحسه... ظل ينصت في فرح غامر. ومرت لحظات تبعتها لحظات وهو يصغي... ويركز في الإصغاء.

أخذ ينظر إلى عقارب الساعة. عقرب الساعة النحيف

الطويل يقفز في كل ثانية قفزة وقلبه يقفز معه قفزة أو قفزتين...

وصحا سمعه على قرع جرس الساعة الضخمة التي تتوج صدر المكان فانقبض صدره قليلاً... العقرب يركض بعنف ويلسعه كإبرة العقرب... وبندول الساعة يتدلى ويتأرجح فوق رأسه كرأس حية.

ساورته الظنون ولكنه كبحها من رأسه، بل وكبتها وكأنه اقترف معصية... وراح يلوم نفسه على أنه أحرج صديقه في هذه اللحظة المتأخرة من الليل وهو الآن يتدبر الأمر في مشقة . مع أنه كان واثقاً من أن الأمر لا يحتاج إلى ذلك، ولكنه أكده في داخله تأكيداً لا يقبل الشك أو الارتياب...

وطال الانتظار... وساوره خوف على صاحبه. وراح يلوم نفسه ويعنِّفها على سوء اختيار الوقت...

أخذ ينتظر في وجل وألم يقلب طرفه فلا يرى إلا عقارب الساعة وبندولها المرعب...

كحٌ... ثم سعل. دقت الساعة... أختلطت دقاتها بكحيحه وسعاله... غيّر جلسته. نهض ثم قعد... نهض ثم مشى خطوتين... ثم عاد...

سار بضع خطوات ثم وقف... وقف في وسط غرفة الاستقبال. لا يدري ماذا يفعل. وطال به المقام وعقارب

الساعة تنشر قلبه ودقاتها تقع فوق رأسه ودماغه كضرب المقارع... سار ووقف بباب الغرفة... ثم تنحنح وكحَّ... ولكن لا أحد... تشجع ونادى نداءً خفياً خافتاً ولكن لا أحد... رفع صوته قليلاً ولكن لا أحد... رفع صوته أكثر وهو ينادي «أبا سعد... أبا سعد...».

وجاءه نداء امرأة خشن كصوت ضبعة جريحة: «أبو سعد نائم... أبو سعد نائم».

دارت الدنيا في عينيه... انقلب عاليها سافلها... رأى الأشياء حوله تضطرب وتتحرك وتموج... وتسارعت دقات قلبه، وطفح جسمه بعرق بارد... كاد يدخل حالة إغماء...

وجد باب البيت الخارجي مفتوحاً فخرج... سار في الطريق المتلوي كالأفعى الميتة...

خرج إلى الفضاء الميت إلا من أضواء النجوم التي يحس بها كأنها جمر يتقد في قلبه... ولا شيء في فكره أو عقله سوى الذهول وغصة في حلقه كمسمار من نار. شعر بحزن له مخالب جارحة تتغلغل في روحه... حزن يتسرب إلى قلبه كما يتسرب السم المميت... حزن مفعم بهزيمة وخذلان وندم...

همّ بأن يصرخ صرخة تفجر الصمت... صرخة يتشظى فيها الألم المرتعد في صدره ويصطدم بالنجوم. ثم أحس بوهن ورغبة عارمة في أن يجهش بالبكاء.

همّ بأن يستسلم. لكنه ظل يقاوم ويتماسك كأسد جريح لا يريد أن يسقط قبل أن يموت واقفاً... وبرغم تماسكه فإن لسانه راح يردد في حشرجة تشبه البكاء:

إذا قلت هذا صاحب قد رضيته

وقَـرّت بـه الـعـيـنـان بُـدّلـت آخـرا

كذلك حظي لا أصاحب صاحباً

مـن الـنـاس إلا خـانـنـي وتـغـيـرا

التنكة

البحر يموج بالصخب... هو يمشي ويمضغ الصمت... وفي صدره صخب يعلو ويهبط... لم يعد يحتمل. منذ بدأ رحلة العمل ـ المهين ـ مع مديره وهو يكابد، لكنه كان يلوذ بالصمت، يلوذ بالتحمل... حالته الآن لم تعد تحتمل، كل شيء يتبدل ويتغير وفق نواميس التبدل والتغير إلا مديره هذا فهو صامد في جموده وتخلفه.

تنكة صدئة أكلت رطوبة البحر جزأها السفلي فتمزقت وتناثرت حباتُ الرمل من جنباتها، تغرق على طرف الساحل الرملي حيث يصلها ابتلال الرمل حين يمتد الموج إلى ما تحتها. حدق فيها طويلاً في عبث وكأنها شيء جدير بالاهتمام والإنتباه. لا يدري لماذا وجد نفسه مشدوداً إليها ينظر إلى أجزائها السفلى وقد «تخشرمت» واهترأت وتثقبت... وإلى أعلاها وقد أخذ لون الشيء المحترق بفعل الرطوبة والشمس... وجد نفسه بلا سبب مندمجاً في مشاهدتها لا يحوّل بصره عنها وكأنها ضالة عثر عليها، أو

عمل فني خالد رآه لأول مرة. ماذا في الأمر؟ تنكة مرمية على ساحل البحر أكلتها الملوحة وعوامل التعرية... ولكن؟

اقترب منها، دار حولها، صار يمعن النظر فيها... صار يركز بدقة أكثر وتفصيل أكثر... صار ينظر إلى الثقوب وأعدادها، وأكبرها سعة، وأصغرها... وامتداد الثقوب في الطول أو العرض وكذلك الثقوب المليئة المسدودة بالرمل والثقوب الفارغة... تطامن إلى الأرض. وضع ذقنه على التراب. صار يحدِّق في الثقوب التي ينفذ منها الضوء والثقوب التي لا يتسرب إليها... نهض واقترب قليلاً من رأسها. وجد أن الفتحة الصغيرة في ركن سطحها مغلقة وأن السدّاد في مكانه... ورأى الحلقة التي في الوسط في مكانها ولكنها قد أُزيحت من جهة إلى أخرى، فأثر الحلقة واضح بيِّن... وهذا دليل على أن أحداً قد حركها منذ عهد ليس بالبعيد.

راودته نفسه في أن يمسها وأن يحركها قليلاً ولكنه خشي أن تنهار دفعة واحدة فبناؤها المهترئ ينبئ بإمكانية انهيارها السريع، وهو يخشى أن تقع فتذهب لذته ومتعته. إنه حريص على إبقائها كما هي!!

راح ينظر إليها باهتمام واستمتاع غريبين، تمنى ألا يفارقها. كأن شيئاً في ذاته له علاقة وثيقة بهذا الهيكل المهترئ التافه الرخيص... لا يدري ما كنهه ولكن قوة هذا

الشيء غلبته على إرادته وعقله فجعلته محبوساً مربوطاً إلى هذا الشكل والمنظر الغريبين...

تمنى أن ينقل التنكة معه إلى المدينة، ولكنه كان يخشى أن تتزعزع فيسقط شيء منها أو يتغير شيء فتفقد كمال صورتها التي أخذته وشدته شداً عظيماً... فكر في أن يحفر ما حولها وأن يعمِّق الحفرة ثم يقتلع كل البقعة التي تقع فوقها ويحملها إلى المدينة...

صمم على تنفيذ الفكرة ـ الحمقاء ـ وبعد مشقة وعناء حمل التنكة معه إلى المدينة... كاد النوم يفارق ليلته تلك فرحاً وزهواً ونشوةً بهذا الكنز العظيم.

في الصباح حملها في سيارته. سبق كل الموظفين إلى الإدارة!! وضع التنكة على مكتب سعادة المدير وانتظر...

حدق المدير بعد جلوسه على مكتبه في التنكة في ذهول واستغراب، وقال في استنكار وهو ينظر إليه: ما هذه؟

قال: انظر إليها! حدق فيها جيداً سوف تعرفها...

أعاد النظر وهو لا يكاد يصدق ما يسمع أو يرى...

دنا من المدير بكل هدوء وثقة قائلا:

سيدي المدير هذه أنت.

الحرمان

عندما تسرَّبت نظرته إلى الحقيبة «إياها» تحت كف عمه فوق الطاولة الصغيرة وهو يحتسي فنجان القهوة تحول ريقه إلى علقم... صار حلقه يسيل بالمرارة... تحول صدره إلى مزرعة من الحنظل... غص بالكلام... ضاقت حنجرته بالتنفس... ماتت الكلمات في فمه... راح يكابد دواراً غريباً... بقع سوداء، وصفراء تتراقص على حيطان «الصالون» الفسيح المترف... برغم حرارة المكان فقد شعر ببرودة تسري في أطرافه وأوصاله... أحس بأن قِرَباً من الماء البارد تراق على جسده... عمه لم يقل شيئاً!! ولكنه هو لم يحسن الظن به فهناك أكثر من وسيلة مقنعة لو كان عمه يريد شيئاً آخر غير الذي ساوره...

دخل في شبه غيبوبة... استغرق في حلم، رأى القرية... والبساتين، وأيام الأعياد... الشمس المشرقة على الحقول، وبرك الماء، الليالي المقمرة، والأحاديث العذبة الصافية صفاء القمر... صرح بناه لبنة لبنة «بسكّر» ذكرياته، ووجع أعصابه،

ها هو ينهار أمامه دفعة واحدة في هذا الصالون المترف الغني بكل شيء إلا بالإحساس الرحيم!!

فجأة لاحت له صورة أبيه... ظهر بملامحه الواضحة المفعمة بهدوء الشيخوخة... وحكمتها يوم قال له وهو يمسح لحيته البيضاء ويحاول أن يعدل قامته المحنية وقد وضع يمناه في كف ابنه وكأنه يتكئ عليه وهما في طريقهما إلى مسجد القرية: لا ترفع رأسك يا حسن، عمك بعيد... «ابنته بعيدة عليك»... ثم رفع نظره إلى رأس النخلة الطويلة الشامخة وضغط على يد ابنه وسكت.

* * *

أحس في نفسه خيفة عندما رمق عمه الشيخ إبراهيم فرآه متصلب الوجه حائل اللون... فحينما كانا معاً إلى مائدة الغداء شعر بفتور في الوجه والحديث، بل بالقلق يساور عمه... حتى مهاتفته في العمل هذا الصباح لم تكن مريحة وليس فيها ما يشي بالطمأنينة... وها هو عمه الآن يبدو أمامه كتمثال قديم في ميدان واسع يتساقط عليه الثلج والجليد.

عندما حرك عمه يده وجذب الحقيبة الصغيرة راح يستجمع قواه ليحكي... كان مضطرباً وقلِقاً كأنه يريد أن يعلن وفاة عزيز أمام أهله... لكن حسن مد يده مبادراً وقال لا داعي. اعرف ماذا ستقول... استيقظ عمه كالموخوز بحربة

الندم... وقال لا بأس سيعوضك الله غيرها... ليست لطيفة من نصيبك.

* * *

كان الشارع خالياً... فالحر لا يطاق، والناس في مثل هذا الوقت في بيوتهم قد عادوا من أعمالهم... هدوء شامل وشمس محرقة... كلاب الحي كانت جاثمة مترامية تحت الشجيرات تنعم بالظل ورطوبة الأرض المسقية بالماء... لا يدري أين يتجه... كأن يداً جبارة قذفته في العراء البعيد في الصحراء والعطش والهلاك.... صار يعبر الشوارع... يقطع إشارات المرور... يسير في الاتجاهات المعاكسة كأن حمى عنيفة هبطت على رأسه فجعلته يهذي... يتخبط... يسير على غير هدى... حاول أن يستجمع قواه بعد ان شتمه سائق سيارة، لكن صُوراً متشابكة متداخلة مرتبكة تزدحم في مخيلته فتضيق بها جمجمته... صورتها... صور الطفولة... الذكريات العذبة... البيت... العمل الشاق.... صورة أبيها: «عمه». آه كم هي مفزعة... صورة الحقيبة التي استهلكت دمه وأعصابه، مستودع تعبه، وهمومه، وكدحه، وأحلامه!! أحلامه... خميلة متشابكة مطرَّزة بألوان الزهور تحترق. تتحول أمامه في دقائق الى كومة رماد....

كان سعد، وهما في السيارة متجهين إلى الشركة، يعض على شفته بحنق ويقول: «عمك هذا نذل حقير. منذ رأيته

أول مرة وأنا أشعر في داخلي بكراهية ونفور تجاهه... أشعر بأنه يرتدي ذلك الجلباب الذي يخفي وراءه عتوه، وغطرسته، وكبرياءه، حتى وإن كان يحاول أن يرشي مشاعر الآخرين بتلك الابتسامة المفتعلة... المبطنة بما تنطوي عليه نفسه من لمزات الازدراء والانتقاص من الآخرين»... وتابع سعد:

«إنني اعرف هذا الصنف من الناس... يُظهر لك العطف والتودد والحنو... وربما التقدير والإعجاب، وهو يسخر منك في داخله... طبيعة عملهم علّمتهم المخادعة والمكر والإتجار بعواطف الآخرين... كل أخلاق هذا الصنف قائمة على مبدأ الربح والخسارة... وبالطبع فلستَ ولن تكون في نظره الصفقة الرابحة... ولست أدري كيف انطلت عليك اللعبة... لقد استغلك ببشاعة... كنت المراسل، والمعقِّب، والطابع، والسكرتير، بل الخادم المطيع... ثم ها هو يقذفك بهذه الحقارة واللؤم»...

رد حسن وهو يعاني صراعاً مؤلماً وجرحاً نازفاً في داخله: «أرجوك يا سعد... لا تنس أنه عمي»!!

عمك؟!! أبَعْدَ هذا كله تقول عمي؟!

نعم عمي برغم كل شيء. وحق العمومة سيظل له باقياً شئتُ أم أبيت؟!

طيبتك وضعفك هما اللذان أوديا بك إلى هذا الهوان...

كيف يقبلك لابنته ثم يردّك هذا الردَّ اللئيم... أقسم بالله لو كنت مكانك لبصقت في وجهه وأدرت له ظهري إلى الأبد...

* * *

ارتخت أصابع يده وهو يدق على الآلة الكاتبة... يده تنحسر وتلين وتضعف... يلقي نظرة بلهاء يتبعها بسؤال أبله: ثم ماذا؟! أربع سنوات وأنا أعمل في هذه الشركة إضافة إلى عمل الوزارة. أبدأ منذ الساعة الرابعة عصراً حتى التاسعة مساءً. أحرِّر وأطبع، أنظِّم وأدقق الحسابات، و...

أربع سنوات من العمل المضني، أكدُّ وأكدح صيفاً وشتاءً. لم أتمتع بإجازة... ولم أنعم براحة... لو كنتُ حجراً لخارت قواه!!

كان حسن يستيقظ مع الفجر ويذهب إلى الوزارة... في الرابعة يأتي إلى هذه الشركة ثم يعود إلى غرفته في تلك الشقة المشتركة بينه وبين سعد في أطراف المدينة وقد تداعى من الإعياء والتعب... وهو فوق ذلك اليد اليمنى لعمه في ترتيب أعماله وتنسيقها وضبطها!! ما الفائدة؟ أربعون ألفاً حصيلة عمره، وعمر أحلامه... «ومهر سعادته»، تعود إليه حسيرة في هذه الحقيبة الكئيبة!! يا له من شقاء مؤلم أبله...

سعد يعنِّفه ويلومه: أنت بهذا الشكل تنهزم... تنكسر

أمام عمك... تفقد ثقتك بنفسك... كيف تترك الشركة؟ ما السبب؟ يقاطعه حسن وما الفائدة؟ أرجوك...

* * *

في شمال المدينة، في تلك الأرض الفضاء وقبيل غروب الشمس كانت هناك جلَبة سيارات، وحشد من الناس وخيمة ضخمة منصوبة فُتحت جهتان منها، تعج بالحركة، وقد كثر الداخلون والخارجون... عطف حسن بسيارته الصغيرة «فلكس واجن» ووقف ينظر ثم نزل ودخل بين الناس... سمع الناس يتحدثون عن مساهمة... كان يسمع عن المساهمات في الأراضي... أسرع إلى حقيبته الكئيبة... وأخرج ما فيها... وبعد لحظات كان يرمي سند المساهمة في «درج» السيارة.

أمام قصر الأفراح المطرَّز بالأضواء المختلفة... ورائحة بخور العود المنتشرة في الفضاء... منظر الرجال «المسايير» ببشوتهم، السوداء، والبيضاء، والداكنة... السيارات الفخمة التي تعبق برائحة النساء... أصوات الغناء... الدف... والرقص...

أمام ذلك كانت تسيل روحه... أحس بأن جمراً يتوقد في صدره... استعرت وثارت كوامن الألم والحسرة، وانفجرت دفعة واحدة في وجدانه كما تنفجر قنبلة موقوتة... كما تنفجر عبوة ناسفة... أغمض عينيه بمرارة وألم... شعر

بفداحة حرمانه وشقائه وتعاسته، فضغط على «بنزين» سيارته تشق صدر الطريق بسرعة لانهائية كأنها المنقذ الوحيد الذي ينتشله من هذا الكابوس وهذا العذاب الذي لا يطاق...

* * *

على الطاولة الصغيرة راح يتفحص ذلك الخطاب الذي تلقاه للتو من مديره... تتسع حدقتا عينيه. يعيد قراءته... يقرأه بسرية... يقرأه بصوت عال... رفع بصره... أنزله... أدار الخطاب مرة يميناً ومرة شمالاً... قرأه عشر مرات... ثم انطلق إلى مديره يقبل رأسه...

قرار بعثة؟!!

المدير بهدوء: هذه هي المكافأة الوحيدة التي أستطيع أن أقدمها إليك... فأنت شاب نشط مثابر... تعمل بإخلاص، وانضباط.

* * *

... سافر حسن ودخل عالماً آخر ودنيا أخِرى مليئة وثرية بالتجارب العلمية والحضارية والثقافية... مليئة بالدهشة والإثارة... معهد اللغة... قاعات الجامعة... شوارع المدينة العصرية... الأسواق الضخمة... المطاعم الجميلة... الشواطئ النظيفة... الحياة المترفة... جذبته إليها... اندمج فيها... امتزج بها... جرَّب فيها الصعلكة والتمرد... والهدوء والصخب...

لكنَّ وخزة ما بين الحين والحين تلدغ قلبه، تتسرب إليه، بل تفاجئه حتى في أحلى لحظات متعته... بل وهو ينصت أحياناً الى المحاضرات، أو وهو جالس إلى مائدة الأكل... أو حتى على ساحل البحر الرملي المليء بالحياة والناس... هذه الوخزة تلازمه كحالة تنتابه فتكّدر عليه هدوءه وصفوه... لكنه لا يلبث أن ينسى... فيعود إلى نشاطه.

كان جاداً في دراسته... فالجدية جزء من حياة حسن يوظفها ويستخدمها أينما كان... ووجد أن الدراسة أفضل سبيل إلى تكثيف هذه الطاقة وهذا النشاط.

* * *

ذات يوم أيقظه رنين الهاتف.

(سعد) يسلم، وبعد السلام يسأل بلهفة: أين السند يا حسن؟

عرك عينيه المثقلتين بالنوم: أي سند؟

السند يا حسن...

سند... سند ماذا؟

سند المساهمة...

سكت هنيهة وكأنه قد نسي، بل هو في تلك اللحظة فعلاً كان قد نسيه تماماً... لقد انقطعت الصلة بينه وبين ماضيه فنسي كل شيء بما في ذلك السند... إلاّ تلك الحالة

التي تنتابه... لقد تذكّر المساهمة... ولكنه لا يدري أين وضع السند... ثلاث سنين أو اكثر قد مرت!!

الأربعون ألفاً صارت أربعمئة ألف... سيتضاعف العدد. سيرتقي. سيصعد... وفعلاً كان يتنامى بطريقة خيالية. كل شيء في تلك الفترة كان ينمو بشكل خيالي...

وهو في الطائرة عائداً إلى وطنه بعد أربع سنوات من السهر والكفاح... كان يعاوده حلمه القديم... لكنه يقاطعه. يستيقظ منه بسرعة... يطرده عن رأسه... يقرأ كتاباً... يستمع إلى أغنية... يتحدث إلى أحد... كلما أراد أن يحلم عاوده الوخز فهرب منه في عملية مطاردة مزعجة...

* * *

في الصالة نفسها وعلى الكرسي نفسه جلس... لم تتغير الأشياء برغم مرور السنين... لا تزال ألوان قماش الحائط ذات التطاريز وصور الطيور كما هي... اللوحات لا تزال في مكانها... الثريات المعلّقة لا تزال تتوهج... نقوش السقف لم يعلق بها الغبار ولم تتغير ألوانها... المخدات والزرابي المبثوثة على المقاعد غافية في نعومة وسبات هادئ وديع... السجادة الفارسية لا تزال تضفي على المكان رونقاً من الدهشة والترف...

وهو يحملق في الأشياء يبحث عن شيء استجد، او غاب... قطع تفكيره وقع أقدام الخادمة وهي تحمل صينية

الشاي وطفل يتبعها... يظهر رأسه خلفها ثم يختفي... هذه الخادمة لم يسبق أن رآها في بيت عمه...

وضعت صينية الشاي وملأت الفنجان وانصرفت، أما الطفل فقد جمد يحملق فيه في هدوء وبراءة واستغراب...

طفل جميل، وسيم، جذاب. لكنّ في عينيه حزناً وانكساراً... يدعوه... فيقترب، فيقبله ويمسح شعر رأسه ويسأله: ابن من أنت؟... يهز الطفل كتفيه ويحرك رأسه يميناً وشمالاً... هذا طفل ذكي فكيف لا يعرف الإجابة؟!! يسأله: وأين أبوك؟... يصمت الطفل في وجوم. يسأله: أين بيتكم؟. يحرك يده... يشير بإصبعه إلى الأرض...

يقول حسن بملاطفة واستغراب: هذا بيتكم؟... يهز الطفل رأسه ثم يرفعه في حركة رشيقة ناعمة... تزداد دهشة حسن!! يردد في سره: يا له من لغز... هذا الطفل الوديع الذكي لا يتذكر أباه!! ويزعم ان هذا بيته!! ربما إنها شيطنة أطفال... فبعض الاطفال يأتون بمثل هذه الحركات المخادعة والتي ربما يجدون فيها نوعاً من المتعة والعبث بالكبار... ولكن هذا الطفل لا تبدو عليه سيماء الشيطنة... صحيح أنه ذكي... غير أن هذا الانكسار والفتور يدلان على حزن شفيف يتدفق في أرجاء روحه الطرية...

سأله وكأنه يريد أن يؤكد أو ينفي أو ربما يمتحن خبثه!! مَن أمك؟! يرد الطفل رداً سريعاً فورياً: أمي؟! أمي...

يتابع بحماسة: أمي نائمة فوق... ويشير بإصبعه إلى أعلى، ثم يتابع الطفل: تريد أن أناديها؟!! ينتفض حسن، تداهمه النوبة، يحس بأن سكيناً ناعمة تتسرب بوحشية وشراسة إلى أحشائه...

وتستيقظ صور الذكريات... يتدفق بحر من الشوق!! تحلق طيور جميلة الأجنحة تحوم فوق جنة الطفولة المطرزة بالحلم والإلفة والحب النبيل. مسكينة هي. كيف باعها عمه وها هي تعود مخفقة مكسورة القلب تعاني الوحدة والعذاب الشديد... تطفر دمعة من عينه... لا يدري أهي حزناً عليها أم أنه انبعاث حب جديد...

يُقْبِل عمه وهو يتعثر في خطواته كتمثال متحرك... ينهض حسن. يقبّل رأسه. يمطره بعبارات الود والحنان، والشفقة... عمه يرمقه بنظرات فيها ألف ألف اعتذار ولكنها زائغة صامتة كأنها نظرات مريض... استفاق تواً من التخدير...

وينطلق الطفل راكضاً على السجادة الفاخرة... يلوح بقدميه الحافيتين الناعمتين في الهواء... وقد ترك في المكان همساً يكاد يبين.

الاستغاثة

كانت الريح تعزف في خوص النخلة الواقفة على ضفة الوادي... صوت خشخشة عسبانها اليابسة يحرك في قلب راشد الحزن واليأس والقنوط... نصف أعسب النخلة يابسة. والأرض تحتها هامدة جامدة. ماتت الحشائش وجف كل عود أخضر.

كانت قطعان الأغنام الهزيلة تلقي بأجسادها تحت شجر العاقول الذي أكلت الأغنام لحاء جذوعه من شدة الجوع... يقف عائض يخبط بعصاه أطراف الأغصان المرتفعة التي لا تزال خضراء أو بها بقية من اخضرار.

تتساقط الأوراق فتتناوشها الأغنام وهي رابضة... منذ ثلاثة أشهر وعائض يجر أغنامه من شعب إلى آخر يلتمس لها قُوتاً حتى ولو كان شوكاً يابساً... جاء إلى القرية بعد أن نفقت إبله وراحت تموت في طرق الصحراء ومجاهلها ولم يبق منها إلا عظامها البيضاء المتناثرة تلوح على الدروب حيث تناهشتها النسور.

راشد وعائض يلتقيان عادة بعد الظهيرة تحت النخلة حيث يسقط الظل على رمل الوادي... يجلسان لا يدريان لماذا يجلسان!! او بالأصح فهما لا يخططان لمثل هذا اللقاء ولا يتفقان عليه وإنما تدفعهما ربما تلقائية الخوف... العطش، والجفاف وسوء المصير هي التي تجمعهما. راشد خائف على نخله من الجفاف واليبوسة والهلاك... وعائض خائف على أغنامه من الموت الذي بدأ يأخذها واحدة تلو الأخرى.

يجلسان تحت الظل يتحدثان قليلاً، ويصمتان طويلاً... يتحدثان عن الخوف من امتداد العطش ويختصران في الحديث وكأن الحديث عن العطش شيء من التطير، ويرجوان السيل الذي يكاد موسمه ينصرم دونما قطرة واحدة... يوجزان وكأن الحديث عن مضي الوقت يزيدهما ذعراً ورهبة وجزعاً.

لم يكونا صديقين ولم يكن أحدهما يعرف الآخر وليسا الوحيدين في القرية... ولا يشاركهما أحد الجلوس إلى ظل النخلة التي راح الموت يتسرب ويدب في أعسبها ويكاد يمتد إلى قلبها...

الاثنان هما أشد أهل القرية جزعاً وفزعاً... فراشد لا عمل له ولا مصدر لرزقه سوى هذه المزرعة... وعائض لا

تعيله إلا هذه الأغنام الواهنة التي إذا سارت تُسمع قرقعة عظامها...

الخوف هو الذي يجمعهما تماماً كما يجمع المخبأُ الغرباءَ تحت ضربات غارة...

يصمتان وكأن كل واحد منهما بصمته يراعي مشاعر الآخر لكي لا يزيده حزناً وكآبة... ولكنهما يكتفيان بأن يتحدثا باقتضاب ليخرجا فقط من جحيم الصمت...

قال راشد وهو يخطط على الرمل بسعفة يابسة سقطت من قلب النخلة كالحة كالشعرة البيضاء حين تسقط من مفرق: كم بقي من أغنامك يا عائض؟

فزع عائض من السؤال كالمذعور.... وكانت إجابته زفرة ساخنة خرجت من أعماق جوفه شعلةً من الحزن. ثم أمال جانب وجهه الذي علته كدرة تنضح بالمرارة والألم...

لم ينطق وكأنه لا يريد أن يقول شيئاً... كأنه يريد أن يتجاهل السؤال... فالمسألة ليست مسألة نفْق واحدة أو اثنتين... كان كل الذي يخشاه أن يجدها يوماً في حظيرتها جثثاً منتفخة تحت وهج الشمس...

وقطع الصمتَ حفيفُ عسيب النخلة اليابس والريح تدفعه ذات اليمين وذات الشمال فيمر على الجدار القائم خلفهما فيحدث صوتاً يشبه النشيج يلتاع معه قلب راشد

وكأن طرف العسيب شفرة تمر على قلبه...

قال عائض: متى سيستغيث الناس؟

لكن راشد قفز كالمذعور!!

انطلق راكضاً بكل ما أوتي من قوة جري واندفاع نحو «الماكينة» التي تغير صوتها وأصبحت مسرعة لأنه لم يعد في البئر ماء تسحبه... وفي هذه الحالة لا بد من إطفائها وإلا تحطمت.

فمنذ أن بدأ الجفاف وراشد «يتجمّم» ماء البئر ـ يتركها يومين حتى يجتمع الماء ـ ثم يشغّل «الماكينة» كي تسحبه إلى البركة ليسقي بها النخل بشكل شحيح... وكانت «الماكينة» تعمل لمدة ساعتين كل يومين.... واليوم لم تكمل نصف ساعة. وكأن كمية وقودها لا تساوي كمية الماء الذي تخرجه من جوف البئر!! أطفأها ووقف يطل في أعماق البئر فلم ير إلا الظلام والصمت والخوف... استدار وألقى نظرة على النخل الواقف في شحوب تماماً كما تقف تلك الأجساد التي سيقت إلى ساحة الإعدام...

أغمض عينيه وعضَّ على شفته وكأنه يقاوم وجع القلب الذي يكاد ينفجر في داخله...

شد جفنيه على عينيه بقوة كأنه يريد أن يحبس الدمعة التي تجاهد كثيراً في الخروج ولكنه يجاهد بشدة دون

خروجها، ويتوسل إجمادها وسجنها في قلب عينه... يريد لها أن تجف وأن تتيبس، لا يريد أن يذكر أنه بكى على نخله...

هذا النخل الذي ظل دائماً عامراً بالمجد والسخاء كأنه جنة من جنان الأرض في قلب الصحراء... كان موئلاً للضيوف من البشر، والبهائم والطير... هذه الجنة الغنّاء تتحول إلى أشباح من الجفاف والموت المنتظَر.

عاد وجلس إلى جانب عائض... سأله عائض متى يوم الاستغاثة؟!

رد راشد بغضب وعنف: لست أدري... ولن أستغيث!!

ارتعد عائض قائلاً: لا تكفر يا رجل... واستعذ بالله...

قلت: أنا لن أستغيث... وتابع:

هل تظن يا عائض أن الله سيقبل استغاثة هؤلاء؟

هل تظن أن الله سينظر إلى الملابس النظيفة ويُغفل القلوب الملوثة؟

أتظن أن الاستغاثة إمام يقرأ وقوم يرددون، والقلوب عامرة بالكراهية والحسد؟!!

لا يا عائض... إن الله يجيب دعوة المضطر إذا أناب إليه، ووقف بين يديه في خشوع وتبتّل ورجاء، وقد أفرغ قلبه من كل أحقاد الدنيا وأدرانها وقذرها وأوساخها... ورفع

يديه في تضرع صادق يصل إلى أبواب السماء...

أنا لن أستغيث مع هؤلاء. سوف أستغيث مع آخرين!!

مع آخرين؟! ومن هم؟!

أنا وأنت والنخلة والأغنام!!

سأدع النخلة أمامي... وأنت والأغنام خلفي، وسوف أقف وأبكي بهذه الدمعة التي تجاهد للخروج من عيني... وأنت سوف تبكي، والنخلة ستبكي، والأغنام ستبكي، ولن يخيّب الله بكاءنا، ولا رجاءنا...

وراح عائض يصفّ الأغنام ويضعها على جُنوبها وأنوفها تثير الغبار من زفير الإعياء والوهن... وأعينها قد ترمدت من الجوع والعطش والهزال...

والنخلة صامتة في خشوع كأنها قد هيأت نفسها للنشيج... فتغشّاها صمت وجلال غريبان...

وقف راشد وقد أطلق لعينيه عنان الدمع، ورفع رأسه نحو السماء، والكلمات تمتزج بالنشيج في ارتعاش واختلاج ووجَل، وراح يدعو:

ربنا لقد مسنا الضر، وضاقت علينا الأرض بما رحبت... نحن عبادك وهذه بهائمك، وأشجارك قد رعاها الجفاف وأكلها العطش... ربنا إن الموت يرابط حولنا ويحاصرنا... فلا تُمتنا بهذا البؤس وهذا القنوط...

اللهم إنك تعلم أن قلوبنا نظيفة، وجيوبنا نظيفة، ومأكلنا حلال... ومشربنا حلال... لم نسرق أحداً ولم نخدع أحداً... ولم نرتكب جرماً ولا معصية نحن وبهائمك ونخلك الكريم...

اللهم إنه ليس لدينا أردية نُقَلِّبها!! وإنما نُقلّب لك أكف الضراعة، وأعيناً أغرقها الدمع... فارحم ضعفنا ولا تجعلنا من القانطين... آمين.

وقال عائض آمين.

تنهتت الأغنام وتزافرت، وتحركت أعسب النخلة في شيء يشبه «الآمين» فصدرت جلجلة وجلبة ارتفعتا نحو السماء.

وأقبل الليل وكان راشد واقفا بعد صلاة العشاء أمام باب بيته... فرأى من الغرب وميض برق...

وجاء عائض ساعياً وأنفاسه تلهث ليتأكد مما رأى. وأقبل البرق، وزحف السحاب، وأرجف الرعد... وانهمر مطر السماء... وشوهدت جذوع النخل تخوض في السيل كالعرائس... والأغنام تعالى ثغاؤها في حبور... والطير في جوف الليل صارت تصدح في انتشاء...

وكانت أكفُّ راشد وعائض مرفوعةً نحو السماء تمتزج بالبرق وماء المطر.

«حتــروش»

حـيـاة لا تـطـاق... عـمـل لا يـطـاق... خـذلان... لا جدوى... لا فائدة... عمر مرتهن، وحياة مبذولة برخص... ما الجـدوى؟! عمـر يتآكـل، وزمن يفنى بثمن بخس...

هآنذا أغوص في القاع... كأني خُلقت من طينة القاع...

ما جـدوى الأمانـي؟ نـصـنـع مسـتقـبلاً مطـرَّزاً بـالأحـلام فنصحو على واقع مؤلم مر. لا نستفيق من صدمته إلا حينما تتهشم رؤوسنا، وتكسرها طوارق الأيام.

هكذا وجد «حتروش» نفسه خارج دائرة أحلامه وأمانيه. وجد نفسه منبوذاً في شركة مغمورة، اسمه في ذيل قائمة العاملين بها كأحد الموظفين الصغار.

شركة يديرها رجل جاهل. الشركة تسير بـالمقلـوب، وحياته هي الأخرى تسير بالمقلوب، تمشي دائماً في الخط المعاكس لكل رغباته، وأمانيه!!

كل شيء يتحقق على نقيض رغبته. بشكل عنادي قاهر. عـذابـاتـه تـتـنـامـى، وتـكـبر، وتـتـكـاثـر بـداخـلـه كـالأشـواك

الشرسة. تمنَّى شيئاً واحداً فقط: لو أنه يعيش حراً طليقاً... لو يتشرد، ويتصعلك، في شوارع الدنيا كأي كلب هامل!!

لو يتحرر من العمل، من البيت، من كل شيء. لكن هذا الحلم برغم بؤسه وشقائه وتعاسته لن يتحقق!!

فهو محاصَر بهموم لا خلاص ولا فكاك منها. هموم أثقلت عاتقه وكسرت ظهره.

راتبه حفنة من الدراهم لا تكفي مؤونة كلب مستور الحال...!

ديونه تزداد وتتضاعف. زوجته تتدحرج أمامه كالقنفذ قميئة قصيرة قبيحة سيئة الخلق كحمارة ترفس وتعض وتنهق أيضاً.

تزوجها مطلَّقة وراءها ثلاثة أطفال...

طبعاً هذه من هبات السيد «الفقر»... حقاً لو كان الفقر رجلاً لقتلته...

الأغنياء وحدهم هم الذين يملكون حق الاختيار.

أطفال كالجرذان الحمراء... «وصوصة»، وتقافُز، وتعارُك، وتوسيخ، وبكاء....

تحول منزله الضنك إلى مزبلة. مناديل، قطع حلوى، بقايا فواكه. وهذه الحمارة الحرون لا تلتقي معه في فكر، أو ذوق، أو رأي.

وجد نفسه يشقى ويكد ويكافح ويعرق، يسهر ويتحمل أقسى المشاق والمتاعب الجسدية والنفسية لكي يلقي براتبه أمام هذه البغلة لتغرقه وتبعثره على جرذانها...

قذف بصحن الطعام صارخاً ما هذا؟! إلى متى سأظل آكل من يديكِ هذا العلقم؟!

أقفل الباب خلفه بشدة وهو يلوم الحظ العاثر الذي جمعه بهذه البهيمة؟

مشى في الشارع على غير هدى. لا يدري أين ستقذف به قدماه. مشى حتى أعياه التعب. وجد نفسه يتخبط من شارع إلى شارع، ومن زقاق إلى زقاق...

وجد نفسه في جوف حي بأطراف المدينة حيث يتشكل من «الصنادق» والبيوت الطينية الشاذة التكوين. عثرت رجله بكلب وهو يمشي في ممر مليء بالقطط والماء العكر والقاذورات، فنبح عليه وكاد يعضه...

أفاق على نفسه وسأل أين أنا؟! وكيف جئت، ولماذا جئت؟

صار يبحث عن منفذ من هذه الحارة السيئة القذرة التي صارت تؤوي في جوفها اللصوص والمروجين، وأصحاب السوابق.

سار ولكنه وجد نفسه في متاهة! ساوره القلق والخوف، فكلما تقدم به الليل اشتد الخطر. الحارة تزداد ضيقاً وظلمة، الروائح النتنة الحادة تتصاعد أكثر، أرعبه صوت جئير وعويل منبعث من باب بيت قميء غارق في الظلمة...

أسرع... هرول لا يدري أين يذهب! غرق في تفكيره وهرولته، دخل ممراً أشبه شيء بالسرداب... ركض لاجتيازه... تعثّرت رجله ببطن شخص مستلقٍ فصرخ. بعدها أحس بضربة عنيفة على عنقه وأخرى على أذنه. حاول أن يقاوم ولكن الأيدي والركلات تكاثرت على رأسه وبطنه.

شعر بمغص شديد في بطنه. وجد نفسه مرمياً وقد «شُلِّح» من كل شيء إلا مما يستر عورته. تحسس وجهه فوجده مليئاً بالكدمات والدم المتجمد. أنفه متورم. تذكر أنفها فبصق وتمنى أن ينتحر....

بحث عن شيء حوله فلم يجد إلا التراب والحيطان القذرة.

عنكبوت يعلق بيده ويقذفه فيسقط على بطنه. تركه في غيظ. صار العنكبوت يمشي على بطنه، يصعد وينزل. وأخيراً استقر فوق شفته كأنه يريد أن ينفذ إلى أنفه. مد يده وفركه ثم رماه.

قام ومشى مترنحاً لا يدري أين يذهب! سار في

ذهول... قطع مسافة طويلة أثناء عودته نحو المدينة... مسافة أشبه بمقطع طويل من الوجع...

وجد نفسه أخيراً في ساحة واسعة تحت الأضواء تحفّ بها بيوت جميلة منسقة. اطمأن، ولكنه كان خجلاً من عريه.

رأى رجل شرطة فانقبض قلبه، ماذا يقول إذا قبضت عليه الشرطة؟! ماذا سيقول أهله وأصدقاؤه وزوجته المنكرة وهي التي أخرجته؟

آه لماذا كل هذا القبح؟

اختبأ وراء جدار، راح يحلم ببحر يغطس فيه، يغسل فيه جسده، وهمومه، وقرفه. خاف، ارتعب، تآكل بطنا رجليه، تخيل أنه يسبح في عمق بحرٍ، مليء بسمك القرش... لكن لماذا الخوف؟! طوال حياته وهو في قاع بحر من الهموم أشد فتكاً من أسماك القرش.

أراد أن يسير، ولكن الخفير لا يزال يذرع الشارع. همَّ بأن يظهر ويناديه ويحكي له حكايته. لكن الخفير سيرميه بالجنون، وسوف يسلمه إلى الشرطة لا محالة.

سار قليلاً في ظل الجدار. وجد مخلفات بناء: أخشاباً وتنكاً وعجلات سيارات...

جلس فوق عجلة سيارة، فكر في العجلة... خرج فنفذ

يتدحرج من تحت العجلة... تمنى أن يتحول إلى قنفذ. فإذا واجهته مشكلة تكوَّر حامياً نفسه بأشواكه!! ولكنه ركل العجلة وشتمها.

العجلة هي التي أخرجته من بيته. هي التي أخرجته من الجامعة. العجلة هي التي كانت وراء زواجه التعس النكد بهذه المطلَّقة. العجلة هي التي أفقدته فرصة العمر. آه لو تأنى قليلاً في زواجه....

رفع رأسه من وراء الجدار. الخفير يقترب منه، يسمع وقع حذائه المبطن بقطع الحديد. الخفير يسند رأسه إلى الحائط الذي يتكمش هو خلفه... ومن الراديو الصغير الذي في يد الخفير تنبعث أغنية شجية حزينة. فيتأوه «هو»، ويتلوى، يغرق في صور قديمة، ورؤى حالمة وأمانٍ لم تتحقق...

راح يحلم: يحلم بغرفة نوم مترفة، سرير ناعم، ضوء أحمر امرأة سمراء ممشوقة، شعرها مرسل فاحم كالليل... عينين كحلاوين حالمتين، شرشف معطر برائحة تُسْكِر القلب...

آه يا قلبي المفجوع الموجوع... لعن الله الحرمان والفقر.

الخفير يسعل... يقول في سره: لماذا يقف هذا الحيوان فوق رأسي؟

خفير في الشارع... خفير في الشركة... خفير في البيت... اللهم غفرانك...

همَّ بأن يقذف الخفير بحجر فيفلق رأسه، لكن ما ذنب المسكين؟! المسكين يحرس... تساءل في همس سري: يحرس من؟

هبت ريح تحمل الرائحة المنبعثة من أكوام التنك والأخشاب والعجلات المهترئة... تلمَّس وجهه وأنفه، تذكَّر الزواريب القذرة والبيوت القذرة الفواحة بالوسخ... المكتظة بالحشرات البشرية... بينما على هذه الساحة تقوم بيوت متسقة رائعة مترفة. كل شيء فيها مترف. تنبعث من نوافذها أضواء هادئة ناعمة تشي بالعطر، والحرير والقوارير الناعمة النائمة... وعين الخفير لا تنام. قال لنفسه: أنا مسكين. انبعث من صدره لهب «نازي» متفجر.

أحس بصديد مر من الكراهية والغبن ينز في صدره... يتسرب إلى حلقه... عقدة تتكور وتسقط في أعماق نفسه...

يا لها من سخرية مبكية: جاهل، وجاهلة، وخفير... وأنا فوق عجلة! أحس بفقره وعدميته. ودونيته. احتقر نفسه حدَّ الازدراء...

قتامة تتدحرج في صدره. توجعه حد الإغماء.

الخفير يُطلق صافرته فينفجع... عواء شرس يلوب في داخله...

يقفز الخفير فوق الجدار. يرتعش هو وينتفض تحت ظل الخفير كفرخ دجاجة مذعور.

الخفير يفتح بنطاله! يطلق ماءً ساخناً يتدفق على رأسه ويتسرب إلى وجهه. يمسح وجهه ليتأكد!! الماء ساخن لزج وله رائحة.

اجتاحته موجة من الفزع والغضب. صرخ رافعاً جسده ورأسه... قافزاً فوق الجدار. صاح الخفير في فزع وولّى هارباً. سقط الراديو الصغير من يده...

انطلقا: الخفير يجري في ذعر وهلع...

وهو يجري هارباً من عريه....

وغرقا معاً في الظلام!

شخيـر

أمام التلفزيون كان يجلس هو وزوجته وحيدين... ملّا من الكلام المردد... أحسا بالتعب تماماً كأنهما صعدا طريقاً جبلياً متلوياً فأرادا أن يستريحا...

وظلا جالسين «يديران القنوات الفضائية» يبحثان عن شيء يشدهما ويعيد إليهما النشاط الذهني والنفسي. ولكن لا شيء يثير إلا الاشمئزاز والقنوط.

الأخبار مذابح ومكائد، وتهديد، ووعيد ضد عالمهما.

وبعد الأخبار فواصل طويلة من الرقص السمج المستهجَن الهابط.

بحثا عن شيء مفيد، عن برامج علمية، برامج تاريخية، أو ثقافية. ولكن لا شيء...

وقف خلف النافذة يراقب الشارع فإذا بكلب يعاقر كلبة، وجندي واقف يقبض على (سنكي) بندقيته وقد تهدل رأسه بفعل النعاس... وكانت شجرة السدر الوحيدة في الشارع المليئة فروعها بالعصافير النائمة.

أخذه حزن جارف، وراح يسأل إلى أين نحن ذاهبون؟! ما مصيرنا... ما مستقبل أطفالنا. وظهرت له عيون الأطفال، المغبرة، ووجوههم المعفرة بالتراب... وأسمالهم البالية المثقَّبة... والشبان وهم يُجَرّون كالذبائح، معلَّقين بأرجلهم وأيديهم، بأيدي أولئك الجنود الزبانية والدماء تسيل من أفواههم وصدورهم، ولا أحد يستغيث لهم، أو يهتز لهم، أو حتى يرثيهم... إلا بتلك المقاطع الطويلة من الرقص الفاضح والغناء الهابط السخيف.

راح يراقب العصافير وهي تتحرك، وتتطاير وتعود إلى أعشاشها كلما تحرك غصن من أغصان شجرة السدر تحت الضوء.

حسد العصافير على أمنها، وسباتها ونومها العميق، ورزقها المضمون وهي لا تحمل إلا مناقيرها الصغيرة الصفراء، وأجنحتها الشفافة السمراء...

حلم بحقول مفتوحة لأولئك الصغار يحملون مناجلهم، ومساحيهم، وفؤوسهم، يحرثون الأرض، ويزرعون القمح، بلا بارود، ولا مقامع، ولا دبابات، ولا صواريخ، وقاذفات قنابل حارقة تسيل منها دموعهم... وعند المساء يعودون إلى أكواخهم آمنين، ينامون كهذه العصافير. وفي الصباح يطيرون إلى حقولهم، يغمسون أقدامهم في الطين، والماء، وأحداقهم في أشعة الشمس، تمتلئ أكفهم بالسنابل، وأفواههم بالغناء...

استدار... وقف في وسط غرفة الجلوس يحك شعر ذقنه ويعض على شفته من التبرم.

استأذن زوجته أن يذهب إلى المكتبة. جلس بين الكتب، ولكن الملل لا يزال يعبئ نفسه. لم يجد رغبة في قراءة شعر، أو قصة، أو رواية...

واهتدى إلى التاريخ، التاريخ سيشد ذهنه، ويطرد ملله ويهدئ أعصابه. وراح يقرأ... وتتابعت القراءة.

غادره الملل وحلت في داخله حيوية ممزوجة بشيء من النشوة، وصحب كتاب التاريخ معه إلى فراشه... وراح يقرأ... ويقرأ حتى تسلل النعاس إلى عينيه وخمل جسده فسقط الكتاب من يده وأغمض عينيه... نام ولكنه راح يحلم:

رأى نفسه راكباً جواداً أدهم له صهيل يشق عنان السماء وقد دفعه إلى وسط معركة احتدم فيها القتال.

رأى بنوداً تخفق، وجيوشاً كالجبال يصدم بعضها بعضاً وهو يجندل الأبطال بجيشه ويحول أعداءه إلى فلول منهزمة...

شاهد أبطال الأعداء مصفَّدين، والأسرى مكبَّلين، والغنائم تملأ الفجاج... ورايات النصر خفاقة. وراح يلكز جواده الأدهم يقود جيشه الجرار... شاهد مدناً تسقط...

ودولاً تستسلم... وأمماً تفرّ لا قِبَل لها به... وأمماً تدخل في الطاعة تقدِّم الولاء، وتطلب الشفاعة... وقد أعجبه منظر منارة تلك المدينة المقدسة التي كانت مدنسة حتى خيل إليه أن هلال منارة تلك المدينة ارتفع فوق القمر. ورأى سفناً تعبر البحار تستولي على كل ناءٍ، وتُخضع كل مستعص بعيد... ثم رأى قصوراً مشيَّدة، ومدناً مترفة، مفتوحة للعلم، والعلماء، يتكاثر فيها الشعراء والبلغاء، والكتّاب، والمخترعون، والمبتكرون، والصناعيون... ورأى جيوشاً منظمة، قوية، متماسكة، كل قادتها أبطال، وكل جنودها قادة...

رأى أمة حية مرهوبة الجانب، ورأى التيجان تخضع لتاج أمته وقومه... وشاهد ذات يوم وهو في مقصورته مطلّاً على عاصمة دولته ـ وهذه عادته فهو يتفقد أحوال الرعية من هذه المقصورة التي بناها لهذا الغرض ـ شاهد سحابة مقبلة، ترعد، وتبرق، فظن أنها ستمطر على حقول المدينة لكنها ولَّت مدبرة فقال لها وهو يضحك في تحدٍّ: أمطري أنى شئت فسوف يأتيني خراجك...

وكان الخراج يأتيه من أقطار الدنيا حتى فاضت خزائنه ولم يعد هناك متسع لمزيد من المال حتى قيل إن الرجل يحمل زكاته يحوم بها في أرجاء القرى والمدن ليعطيها مستحقاً، فلا يجد فقيراً ولا معوزاً ولا يجد من يقبلها،

فالكل مثله يبحث عن فقير فلا يجده... قيل حتى الكلاب كانت تشم رائحة الشواء فلا تلتفت إليه من شدة الشبع. واستتب الأمن وساد الوئام بين الناس فكلهم متحابون متسامحون. ماتت الضغينة والحسد بينهم فهم ليسوا في حاجة إلى المال ولا إلى التنافس على المراكز، فكلٌّ مستغن بما في يده، وكانوا فقط يتنافسون في العلم والمعرفة والابتكار... وكان ذلك التنافس الشريف قائماً على التعاون وليس على التشاحن، فكثرت المعارف، وكثرت دُور العلم والجامعات، والمكتبات، حتى قيل إنه خصص لكل عشرة بيوت مكتبة عامة... فارتفعت الثقافة وساد النظام، حتى أصبح شيئاً مقدساً... فالعاملون ـ بكل طبقاتهم وأنواع عملهم ـ صاروا يذهبون إلى أعمالهم ويأتون بلا رقيب يتابع إنجازهم أو حضورهم أو غيابهم. وساد القانون، فالكل يعرف حدوده وواجباته، فلا تجاوُز، ولا اعتداء، ولا سرقة، حتى قيل إن كثيراً من المحاكم أُغلقت لعدم وجود قضايا، وكثيراً من السجون أيضاً أُغلقت لعدم وجود مجرمين...

وكان في مقصورته تلك يطل على ما حوله فلا يرى إلا مساحات خضراء ومدناً أنيقة زُرعت بالمآذن والنخيل...

وذات ليلة وصلته رسالة من أحد وُلاته يشير فيها إلى أن أحد جنود دولة قصيّة ضرب طفلاً من أبناء مملكته، فتكدَّر واغتاظ، وأمتلأت نفسه بالنخوة والغضب... أيهان

طفل من رعيته ويسكت؟! وأقسم أن يأخذ بالثأر، وأن يجيش الجيوش وأن يجوس ديار تلك الدولة، فيحولها إلى خرائب وأنقاض، وأن ينكل بملكها وأن يأتي به مصفَّداً في الأغلال، فيدار به في القرى والمدن والشوارع والساحات ثم يُصلَب وتأكل الطير من رأسه عبرة لكل من تسول له نفسه العبث بكرامة أهله ووطنه.

وجمع كبار قواد جيشه ووجوه قومه وراح يخطب فيهم بحماسة وغضب وانفعال، وأخذ يردد قول المتنبي:

لأتركن وجوه الخيل ساهمة

والحرب أقوم من ساق على قدم

فما شعر إلا بقدم زوجته ترفسه رفسة هائلة في بطنه. فقد أزعجها وأيقظها من نومها بشخيره الفظيع.

إنه... ليس هو

كلما مر به أشاح بوجهه عنه... لا يريد هذا المكان ولا يرغب في النظر إليه! بل إنه يسرع الخطو إذا حاذاه وكأن عفريتاً أو متربصاً به سيخرج إليه...

إنها ذكرى مُرة ومؤلمة... فقد ساقته الأقدار يوماً إلى أن يدلف إلى هذا المكان... لم تكن هناك رغبة، ولا دافع حقيقياً ولا هدف واضحاً لدخوله... ولكنه الفراغ أحياناً، والبحث عن التسلية أو الاطّلاع على الجديد...

وجد نفسه في المكان مثلما حدث له ويحدث في أماكن كثيرة...

وهو في هدوئه، وانشغاله بما في المكان... أحس بصعقة على رأسه وفوق عنقه. شده الذهول... أخذته شبه غيبوبة... أراد الالتفات فلم يتمكن، فهناك يدان جبارتان شدتا على عنقه وحلقه بحنق وغيض وقسوة... انكتمت أنفاسه داخل صدره... صارت رئته تنتفخ بهواء مؤلم كالسم والموت الزؤام... جحظت عيناه، وتدلى لسانه، وازرقّ وجهه

وتنافرت عروق جبهته... أراد أن يقاوم فلم يستطع... أراد أن يصرخ فلم يستطع. وحينما أشرف على الهلاك وأحس بأن نبضه ثقيل، وأن قلبه يدق ببطء وارتباك... أُطلقت رقبته لثوان معدودة حتى إذا عادت اليه أنفاسه، وتدفق الهواء إلى رئته، عادت إليه القبضة الشنيعة، والصعقة الهائلة فوق الرأس...

* * *

في العمارة المقابلة للمكان... تقع الشقة ذات الرقم «٢٠» حيث ضجيج عيد ميلاد «الطفلة»... تسرب «شلاح» كالهواء إلى غرفتها... كانت «لمياء» تقرأ رواية غرقت في أحداثها... صيحات «الطفلة» مع بقية الأطفال وضوضاؤهم، وأصوات البالونات وهي تنفجر، لم تصل إلى رأسها! فقد كانت مندمجة منتقلة إلى مكان وزمان الرواية التي كانت بين يديها... كانت منفصلة عن مكانها... كانت هناك وراء البحار... وعلى بُعد مئات الأميال تركض على الأرض الساخنة تبحث عن ظل شجرة... حيث يطاردها هذا الشيطان - في الرواية - منفوش الرأس... وهي تفر منه في الصحراء الشاسعة الواسعة حيث الجوع والحر والعطش... يبست شفتاها، وجف حلقها، وأخذها الإعياء. وقد تراءى لها من بعيد شبح شجرة فهي تؤمه في أمل ووجل وذعر وخوف، أما «شلاح» فقد وقف هادئاً رزيناً. تأمل كل شيء. تأمل

الغرفة والسرير والجسد الممتد... بحث بناظريه عن كل شيء... تنقَّل بخفة وهدوء... كان يعرف هدفه. يعرف ماذا يريد. يعرف متى يأتي... لقد خطط لهذه اللحظة كثيراً، وصبر كثيراً...

كلما أوجعته الفاقة نظر إلى الشقة «٢٠»... كلما ألهبه الطمع اختلس نظره إلى هذا المكان...

كان يعرف بحَدَسه وظنه أين تكون الأشياء التي يبحث عنها. رغبة عارمة كانت تدفعه إلى ركوب المغامرة، ولكنه كان يدفع ذلك بالصبر والأناة... كان يدفع التهور المطلق... إلى تهور منظَّم. وها هو يصل... هي لا تزال تلهث في صحرائها... كان يرى نبض قلبها المتسارع من عروق رقبتها النابضة وهي مستلقية تركض على الصفيح الصحراوي الحارق فوق ورق الرواية... لم تشعر به، ولا بحركته في ما حولها.

في لحظات، كان كل شيء قد انتهى... انتقل «شلاح» من حالة الفقر والإفلاس والعدم إلى حالة الغنى، فامتلأت جيوبه بما يجعله يعيش محترماً لحقبة من الزمن...

أراد أن يتسلل كالريح، تماماً كما أتى... لقد أتى من ثقوب باب المناسبة... مناسبة عيد ميلاد الطفلة. الطفلة تفرح! الأطفال يفرحون... يغنون... وهو ينفذ إلى المكان كالهواء... لماذا لا يفرح! لماذا لا يحتفل كبقية خلق الله! ما

الذي يجعل هؤلاء يحيون، وهو يموت... أو يعاني من الموت! لماذا يجوع هو ويعرى ويبرد، والخزائن تغص بهذه الأشياء الفاخرة! السماء واحدة... والأرض واحدة... والدم واحد... فلماذا يوزَّع الفرح توزيعاً مجحفاً! لماذا لا يملك هو غرفة كهذه، وسريراً كهذا، واسترخاءة كهذه؟!

التهب وجهها وانشوت قدماها وهي لا تزال تلهث على أرض الرواية وقد أجهدها المسير. تقترب من الظل يراودها الأمل في النجاة، وعندما تزداد قرباً تلتفت لتطمئنّ... تلمح الشيطان الأغبر ذا الشعر المنفوش يجري على الأسطر وراءها. يقترب منها، يكاد يلامس كتفها، فتصرخ وترمي الرواية...

تقف فترى «شلاح» واقفاً فتصرخ... تقفز من مكانها... يقفز هو... يعبر ضوضاء الأطفال ويتسرب كالريح...

تصرخ... تنادي... يتجمع الأطفال... يصل الأب في ذعر وهلع... يجري وراءه يبحث عنه في الشوارع وفي الطرقات...

يقبض عليه في هذا المكان... يصفعه على رأسه. يظل يخنقه... وحين أصبح كالعصفور المذبوح في يده، أقبلت راكضةً تنظر في وجه أبيها وفي وجهه وهي تصرخ:

دعه يا أبي... إنه ليس هو!!

الحذاء

ألقى نظرة إلى حذاء ابنته التي تجلس بجواره في مقدمة السيارة. الحذاء قديم ومهترئ جداً ومتهالك وقد تكاثرت عليه الأصباغ، فلم تفلح في إخفاء خدوشه وتجاعيده. كعب الحذاء متآكل بطريقة مائلة.

رفع رأسه وهو يقود السيارة ليتأكد من سلامة الطريق، ثم عاد يلقي نظرة على الحذاء المخدَّش المتآكل. تنبهت هي إلى اهتمام أبيها!! نظرت إليه نظرة سريعة، انخطف وجه أبيها... كان يسترق النظرة لكنها لمحته. انكمش وجهه واضطربت ملامحه فخجلت.

كانت تواري ذلك عن أبيها لمعرفتها بضيق حاله، وكان الأب يدرك تلك المواراة ويلحظها دائماً في عيني ابنته الجميلتين الناطقتين بالضعف والانكسار... فتاة بعمر زهرة الريحان، جميلة رائعة التكوين النفسي والبدني، شديدة التهذيب، شديدة الحساسية، تحب أباها إلى درجة الجنون.

«أبي! كم هو رائع هذا الأب. ألوذ بعينيه الرائعتين

كعيني صقر، فأشعر بالأمان. وجهه السمح المائل للاستطالة وأنفه الأقنى الأشم، صورة للبطولة والأَنَفَة. سمرته الشفافة: سمرة الشمس والدفء والوضوح. حديثه العذب الأنيس الودود يُشعل في صدري الإيمان بالحب وطاعة الله والوالدين...

أبي نعمة فريدة... حين تتكاثر النِّعَم على الآخرين... أبي أفضل النعم... لم أره غاضباً ولا عاتباً... متسامح تفيض روحه بالكرم والنبل والأصالة. سبَّاق إلى الخير وإلى الفضيلة... «ديوانية» أبي المتواضعة هي «ديوانية» الرجال...

كم أنا محظوظة بهذا الأب الرائع العظيم...».

دخلت في هذا الحوار مع نفسها وهي في طريقها إلى المدرسة تجلس إلى جانب أبيها في مقدمة السيارة، حيث ألقى تلك النظرة على حذائها البالي فانقبض قلبه. كفَّت الأعين عن ذلك الحوار الصامت الجارح، ولكن القلوب كانت تغوص وتنصهر في هذا الألم الموجع النبيل.

تهادت إلى مدرستها ـ الثانوية ـ وهو واقف في سيارته العتيقة كي يطمئن إلى دخولها. كان قد قرأ في عينيها وفي وجهها، بل سمع ذلك الحوار الداخلي في سرها.

تدفق قلبه بالحنان والرأفة.

جوارحه تلتهب بهذه العاطفة العارمة، وتحتشد مشاعره

بالألم الطافح فتغرورق عيناه بالدمع والتعاسة... وتنزفان بالحزن والمرارة. كم هي مكسورة الخاطر هذه المسكينة؟ كيف ستقاوم نظرات الازدراء والاحتقار من قريناتها... كيف ستواري حذاءها المنهوش بالقِدَم، والبِلى... لحا الله ذا الدنيا «فكل كريم النفس فيها معذَّب».

شعر بأن يداً قاسية تجوس أحشاءه. أحس بالضعف والعجز اللذين يكسران النفس... يا لقلب الأب الحاني الرؤوف حين يكسره العجز... حذاء رخيص «يغلى» على مثل هذه الجوهرة؟! يا لسخرية القدَر... كم في هذه المدرسة من الفتيات اللواتي يغيرن أحذيتهن كل يوم؟! «دنيا»... قالها في سره مستهجناً حالته... ومضى... كان طول الطريق من المدرسة إلى مقر العمل يحسب في رأسه كيف سيشتري الحذاء.

حَسَبَ الراتب مع المصروف الشهري فوجد أنه من الصعب تحقيقه... حَسَبَ الراتب مرة أخرى مع التقشف الشديد فوجد أن ما سيوفره لن يكفي لشراء حذاء يليق. فأقساط السيارة - حذائهم الكبير - تلتهم كل شيء. فكر وفكر وتَدَبَّر... أوقف سيارته أمام مبنى الإدارة وهو لم يسوِّ حساب قيمة الحذاء.

دخل في دوامة العمل ما بين نكات العم إبراهيم وسخرية كاتب الصادر سليمان...

نفسه السمحة تجد متعة في مثل هذا الجو. بل نفسه السمحة هذه تساعده على أن يعيش في أي جو. إنه يحب الناس... كل الناس، يحب العمل، يحب الكفاح، والتعب. يحب لقمة العيش التي تأتي من العَرَق والصبر والمشقة. ظل يطبع، ويطبع... الطباعة هي مهنته ووظيفته. أكثر من ثلاثين عاماً وهو في صحبة مع الآلة الكاتبة، مع الحرف، والورق. يستطيع أن ينسخ وهو يتحدث، أو هو يفكر في أي شيء. ومع هذا فهو لا يخطئ أبداً. عينه وإصبعه لا يخطئان الحرف حتى في أصعب الظروف... حتى في الظلام.

مديره يُكبر فيه هذه النفس السمحة المتسامية المحاطة بالنبل والوقار، كما يُكبر إتقانه وقدرته على الطباعة السليمة والسريعة... حتى صار طابعه الأمين.

شيء لم يستطع إتقانه هذا اليوم: التوصل إلى ثمن الحذاء!!

تراءت له ابنته واقفة أمام زميلاتها وهي تحاول أن تواري سوأة الحذاء، فتقصر قامتها كي تغطّيه بفستانها المدرسي. دارت الدنيا في عينيه، واستمالته رغبة في الانكفاء، والوجوم. لكنه راح يعيد الحساب من جديد... يجمع ويطرح ويقسم ويطبع.

وقف أمام المدير، بعد أن استدعاه، في شيء من

الدهشة والاستغراب. فنظرات المدير لا تنم عن الارتياح أو الرضى.

ما الخبر! كل شيء يمكن أن يتغير ويتبدل إلا هذا المدير الشهم... قالها في نفسه في سره. مرت لحظات من الوجوم والصمت والحيرة الغريبة من الطرفين. لكنه بادر: خيراً إن شاء الله! هل هناك شيء؟

كتم المدير غيظه، ومد إليه خطاباً كان بين يديه وطلب إليه قراءته. أخذته الدهشة. قرأ الخطاب فلم يجد فيه شيئاً يعنيه أو يلفت انتباهه... بل هو الذي طبعه منذ قليل. فما الأمر؟ قرأه مرة أخرى ثم أعاده إلى المدير في شيء من الشرود، وربما الذهول، لأنه فعلاً لم ير فيه شيئاً!! طلب إليه المدير أن يقترب... دنا قليلاً، وضع المدير إصبعه فوق السطر الأعلى من الخطاب وقال: اقرأ. قرأ، فإذا مكتوب: (مع التحية لسعادة المكرَّم... «الحذاء»... المحترم)!!

بيت النمل

راحت تنهش قدميه أفواهُ الدروب، وعيناه تمضغان التلال والشجيرات القاتمة... وحمامة تفر من غصن شجرة فيتناثر ريشها في الفضاء تحمله الريح فينسج في عينيه سحابتين في هذا الفضاء القائظ المشمس...

الحمامة وهي تجدف بجناحيها في ماء السراب، هي آخر كائن حي يرحل عن هذا المكان!!

أسند جسده تحت الشجرة في هذا الهجير المتوقد، تحاصره الحجارة البيضاء الملتهبة في هذا الظل الشاحب كظل الغربال... أسند جذعه إلى جذع الشجرة...

لمح بجانب عينيه ثقباً في الجذع تخرج منه أسراب النمل الأسود وهي تجثم على بقعة صمغ اعتصرها جذع الشجرة... النمل متكوّم حولها. كل يأخذ نصيبه ويرحل، والطابور الآخر يزحف ببطء ينتظر دوره في وجبة الصمغ...

شَدَّه المشهد، وأنساه الحر، لولا رَشْحُ العَرَق الذي ينزلق من جبينه ويتسرب إلى عينيه ويبتل منه فمه.

خُيل إليه، بل تأكد من أن في جوف الشجرة هذه عالماً وحياة غريبين نشطين فهذه الوفود السوداء التي تأتي وتذهب، تهبط وتظهر، تذكّرهُ بمحطات قطار الأنفاق في بلد غربي...

جذع الشجرة من الداخل عوالم من الأنفاق والسراديب. كل نملة لها مكانها ومستودع غذائها ومكان تفريخها...

حاول في لعبة قتل الملل أن يحصي أعداد النمل الداخل لمدة خمس دقائق فتعب... وحاول في خمس دقائق أخرى أن يحصي عدد النمل الخارج فتعب أيضاً... وأدرك أن كلتا الحركتين متقاربة... استراح إذ نسي جسده فمدّ رجله.... لدغته حصاة بيضاء متوقدة كادت تشوي رأس إصبعه فكفها بسرعة... دفع بركبته عَقِبَ بندقيته التي أسندها إلى جذع الشجرة.

تفرّس في البندقية: في خشبها اللماع المدهون... وماسورتها السوداء... وخيطها الحريري. ولكن ما الفائدة وقد فرت الحمامة؟ وراح يسأل وهو ينظر إلى أسراب النمل الأسود وهي في حركة دائبة. لماذا جئت أقتل هذا الكائن الجميل؟

وظل السؤال معلّقاً بين عقله وعاطفته... فالذبح والقتل تدمير ووحشية... وحب الصيد هواية تصل حد الغريزة...

وراح يفتش عن جواب، وراح الجواب يتلجلج بين حدته ومراوغاته...

أصبح يبحث عن شيء يُسكت به أصوات الأسئلة... أشرع عينيه نحو الفضاء... نظر إلى الجبل المقابل فلم ير شيئاً يستطيع أن يميزه إلا جسد الجبل الباذخ المرصوص بالأحجار المتراكمة...

عاد بنظره إلى موقع قدمه... لفت نظرَه عقبُ سيجارة!! مدّ يده إليه والتقطه... لم يلتقط في حياته سيجارة فضلاً عن عقب سيجارة... ولكنه الهروب من السؤال الصاخب الحاد...

قَرَّبَ عقبَ السيجارة فشمّ رائحة قوية... وكأن العقب قُذف به للتوّ... التفت يميناً وشمالاً ولكن لا أثر لأحد... لا شيء هنا إلا عقب السيجارة...

خطرت له فكرة.... «ماذا لو وضعت السيجارة بالقرب من كوم النمل على الصمغ؟! أو ماذا لو وضعتها في ثقب بيت النمل... هل أكون بهذا سددت باب رزقها...». ورغماً عن سخف الفكرة فقد نهض ليفعلها...

* * *

أبطأت الحمامة...

ربما إنها لن تعود... تحسس بطنه: هل أنا جائع؟

ضحك في سره!! ومتى كان الصيد بسبب الجوع؟

جذب ساقه واستعدَّ للنهوض ورفع رأسه كعادته دائماً حينما يهم بالنهوض...

شيء ما لمحه في أعلى الشجرة لم يُعره انتباهاً كأي شيء يعبر خاطفاً ببصره في بداية الأمر، ولكنه أعاد البصر كَرَّةً أخرى كأنه يؤكد لنفسه أنه لم ير شيئاً. علّق بصره بشكل ثابت في جوف الشجرة... شيء من الذهول جعل رأسه يدور، فظن أن الشمس الحارقة عملت عملها في رأسه. لا شك في أن دماغه صار أكثر ليونة ولزوجة حتى صارت تتراءى له أشياء غير حقيقية.

قدمان عاريتان نحيلتان تتدليان من غصن الشجرة فوق رأسه، وفوقهما شيء كالخرقة على شكل جسد...

رأس يتهدل منه شعر فوق وجه أسحم شاحب متراخ، ميت لولا بريق عينين حادتين، فيهما خوف، وفيهما لون الموت اللامع.

أدار جسده بعد أن استقام واقفاً وحدَّق جيداً، وراح يتأمل هذا الشبح الإنساني الغريب. حدَّثه فلم يجب. ناداه!! فتحرك قليلاً. طلب إليه النزول فغض عينيه... كانت نظراته كلها استجداء... كان خائفاً ينظر إلى البندقية ويترقب...

ناداه برفق ومدّ له يده في حنان... وراح الجسد

المتهالك ينساب في انهيار كما تنساب حية توشك على الموت... وحين اقترب من الأرض حمله على صدره وأنزله.

راح أنينه يتبعثر في الكون الفسيح... كان قلبه يرجف... وعيناه تدمعان...

ضمّه بكلتا يديه وقال ما بك؟ قال بصوت سَرَتْ فيه روح الموت:

لأني لعنت الجوع... طاردتني شرطة المدينة.

نجيب فرحان

يحكى أنه في أحد البلدان السعيدة جداً... عالِم كبير اسمه نجيب فرحان... حصل على شهادة الدكتوراه من إحدى الجامعات الراقية في بلاد الغرب في مجال الفيزياء... وقد أبدى عبقرية خارقة أذهلت علماء الغرب، وحصل على جوائز ونياشين من مراكز بحوث علمية كثيرة نظراً لما حققه من نظريات وإنجازات علمية مذهلة...

وقد رفض كل الإغراءات والتسهيلات التي قُدِّمت له كي يبقى هناك... وأبى إلا أن يعود لخدمة أبناء أمته وللمساهمة في بناء وطنه.

وحينما عاد إلى أرض الوطن تبرَّع بنصف ما يملك لمعمل الجامعة. كما أسس معملاً آخر في منزله... وكان يقضي جل وقته في تجاربه العلمية، وفتح بيته لزملائه وطلابه يأتون إليه لمواصلة بحوثهم وتجاربهم... وللاستئناس بآرائه العلمية في ساعات الراحة في منزله، حيث تدور المناقشات والمداولات العلمية، ولا شيء غير ذلك.

كان يكره الحديث في التجارة مثلاً... فهو يرى أن التجارة ورأس المال يكمنان في العقول... فهي الثروات الحقيقية. وكان يمقت السياسة بل يرى أن السياسة هي سبب نكبات الشعوب وويلاتها، وأنها قائمة على الخداع، والاحتيال، وأن الشعوب هي الضحية التي تدفع ثمن مكر السياسة وألاعيبها.

وكان يكره اللهو والعبث والكسل... فالإنسان ما خُلق ليلهو أو ليعبث... وإنما خُلق ليؤدي وظيفته الإنسانية... تماماً مثله مثل بقية الكائنات الأخرى. فالحيوانات لا تعرف اللهو والعبث والكسل... والحشرات لا تعرف اللهو والكسل... وكذلك النبات، فلا توجد شجرة إلا وتؤدي دورها وعطاءها بدقة وكفاءة ونشاط.

وقد ظل الدكتور نجيب عازباً... فقد أخَّر زواجه لكي يتفرغ للبحوث والنظريات التي تحتاج إلى تفرغ تام بعيداً عن الشواغل والمعوقات التي قد تعطِّل هذه المشاريع الحيوية في ذهنه.

شريكه الوحيد قطٌّ أبيض جميل سمين مترف... وجده يوماً أمام بيته، وحين فتح الباب دخل معه ولم يخرج من البيت منذ ذلك اليوم... فقد اعتنى به نجيب أشد العناية... ودلله أشد التدليل، وكان يأنس به ويستلطفه، بل ويُجلب له أحياناً ما يُجلب للأطفال من شدة حبه له وولعه به.

وقد وضع له كرسياً في غرفة معمله... فإذا تعب القط من اللعب فوق السطوح ومغازلة قطط الجيران جاء وجلس منتصباً فوق الكرسي.

وذات مرة أراد أحد الأصدقاء أن يجلس على الكرسي فنهاه أحدهم وقال له: إن هذا كرسي الرئيس فإياك والجلوس عليه. فاستطاب الأصدقاء هذه النكتة وراحوا يرددونها... وصاروا يطلقون على القط لقبَ الرئيس. يقولون: جلس الرئيس... ذهب الرئيس... لماذا تأخر الرئيس. وإذا أراد أحدهم أن يترك الجلسة مبكراً قالوا: استأذنْ من الرئيس؟!!

وذات منتصف ليل طُرق بابُ نجيب... لبس ثيابه وخرج مسرعاً خشية أن يكون أمرٌ خطيرٌ قد حدث لبعض أصدقائه، أو أن قادماً من البلد وصل في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

حينما فتح الباب هجم عليه ثلاثة أشخاص... وأغلقوا عينيه وحملوه في سيارة جيب إلى جهة مجهولة.

بعد ساعة وجد نفسه مرمياً في زنزانة ضيقة باردة قذرة ليس فيها فراش ولا لحاف... تهيم فيها الحشرات وأسراب النمل.

جلس مذعوراً يترقب لا يعرف السبب ولا يدري ما الأمر... وفي الصباح فتح عليه الباب جندي قاسي

الملامح... رفسه في بطنه ثم سحبه من يده... وجره إلى غرفة التحقيق...

استقبله ضابط ضخم الجثة جاحظ العينين، متورم الجفنين، غليظ الأنف، أصلع الرأس، خشن الملامح، له صوت كجعجعة الطاحونة! قد أُثقلت كتفاه بالنجوم والأهِلّة والنسور... قدم له سيجارة وهو يبتسم ابتسامة كالحة.

ـ قال له: شكراً شكراً سيدي أنا لا أدخن. لكن هل أعرف لماذا أنا هنا؟ أنا الدكتور...

ـ قلت لك دخن.

ـ حاضر سيدي... حاضر... وراح يدخن في ذهول.

ـ قال الضابط: أعجبك الدخان... أم نحضر لك شيئاً آخر؟

لا... لا... أعجبني أعجبني سيدي. أشكر كرمك... ولكن لم تقل لي؟ أنا الدكتور نجيب... الكل يعرفني!!

ـ وقف الضابط... وسار بخطى ثقيلة... وحينما حاذاه اقترب منه وربت على كتفيه وقال: هل التدخين مضر بالصحة يا دكتور؟

ـ طبعاً... طبعاً يا سيدي. لا شك في ذلك ولذلك أنصحك بعدم تعاطي الدخان.

ـ قال الضابط بصوت شبه هامس: والسياسة.

ـ انتفض الدكتور كعصفور التفّت عليه حية، وهو يقول: طبعاً الخوض في السياسة ألعن من الدخان ضرراً... والحديث عنها لا يليق إلا بالسياسيين فقط.

ـ صاح به: قل لي ماذا تقول في الرئيس.

ـ الرئيس!! أي رئيس؟! آه، سيادة الرئيس... هذا رئيسنا ومولانا... وأبونا... أطال له عمره... يشهد الله أنني أحبه وأدعو له في كل صلاة.

ـ هاه في كل صلاة...

ـ أنت متأكد مما تقول.

ـ أقسم لك بالله، وبالقرآن، وبالحزب العظيم، وبحياة الرئيس.

ـ أي رئيس تقصد يا ابن الكلب؟

ـ رئيسنا المحبوب... رئيسنا العظيم... وهل هناك رئيس غيره. ولكن يا سيدي أنا لست ابن... أنا الدكتور...

ـ لطمه الضباط بعنف وقال أي رئيس تقصد يا حيوان!

ـ أقصد رئيسنا، «فلان»... مولانا وحامي حمانا... باني نهضتنا... وأبا ثورتنا... وسببَ عزتنا... ورافعَ هامتنا... محاربَ الألدّاء، و«مُصَادِم» الأعداء. أمد الله في عمره وجعله رئيساً دائماً من اليوم إلى يوم «البعث».

ـ لكمه وقال: اسكت... وقل لي أي رئيس تقصد؟ واصدقْ في قولك.

ـ لا أقصد غيره ولا أعني سواه... والله على ما أقول شهيد.

ـ صاح الضابط: خذوه.

ـ أخذوه وهبطوا به سلالم متعرجة وقادوه إلى قاعة ضخمة كلها وسائل تعذيب... سلاسل معلَّقة، وفؤوس، وكلاليب، وجنازير، وقوارير حارقة، وأسلاك صاعقة، ومناشير آلية، وعصي مختلفة الأحجام... وكمامات للأفواه، وكلاب مسعورة... وأشياء أخرى لم يتمكن من تحديدها لكثرتها وتعقيدها.

اندهش لمعمل التعذيب... وقال يا إلهي! كل هذا أُعِدَّ من أجل حماية الوطن؟!!

جردوه من ثيابه وأركبوه على شيء يشبه ظهر الحصان ولكنه حادٌّ جداً... ثم رفعوا الجهاز آلياً حتى صار في مستوى الرأس. وقف شرطي بجانبه الأيمن وآخر بجانبه الأيسر، وراحوا يضربون كعبَي رجليه بالعصي وهو يصرخ... وكلما ضربوه صرخ ورفع يديه فتصعقه أسلاك كهربائية متدلية فَيَحُطُّ بجسده بكل قوة على المكان الحاد.

راحوا يمارسون عليه هذه الوسيلة حتى سقط مغشياً

عليه والدم يتصبب من رجليه ويديه وفوق مكان جلوسه الحاد... أخذوه ورموه في الزنزانة.

بكى كل يومه وليلته... كسّر البردُ عظامَه، وأكل النمل من جراحه حتى تورمت. وبسبب الوجع والإرهاق العنيفين وطول السهر، أغفى إغفاءة قصيرة رأى فيها حلماً جميلاً... رأى قاعة ضخمة مليئة بالعلماء... حيث شاهد بعض زملائه وأساتذته في الجامعة التي تخرَّج منها... ورأى علماء من بلدان مختلفة وجنسيات مختلفة... وشاهد رجلاً مهماً يلقي خطاباً يشيد فيه بجهود الدكتور نجيب في البحوث العلمية التي تخدم الإنسانية... وتقديراً لجهوده في هذا المجال فقد تقرر منحه جائزة «نوبل للسلام»... ضجَّت القاعة بالهتاف والتصفيق... وامتلأت بأشعة كاميرات المصورين، والصحافيين من أنحاء العالم... وكان أكثر شيء أسعده وزاده فخراً وجود رئيس بلده الذي جاء وهنأه أمام الجميع... وقال: أنت فخر لي وللوطن... لقد أكبر في الرئيسِ هذه الروحَ المثاليةَ في تقدير العلم والعلماء... وقال: كم نحن محظوظون بمثل هؤلاء القادة العظام؟!

ـ لكن الجندي نفسه أيقظه من حلمه برفسة في صدره وقاده إلى الضابط نفسه... قال له: لم تجبني بعد عن أي رئيس تقصد؟

كان في حالة إعياء وذهول ولم يعد يحس بما حوله فراح يهذي:

الرئيس... الرئيس هو الرئيس... نعم، يا سيدي، لا أحد رئيساً سوى السيد الرئيس.

ـ أخذوه إلى المكان نفسه وأجلسوه في مقعد ناعم جداً وجاؤوا له بعصير وفاكهة وخبز وجبن، وقهوة وضعوها أمامه... وقبل أن يدنو أقبل عليه طبيب مبتسم وطلب منه أن يمد ذراعه... مد ذراعه وهو يتعجب من هذا الحنان والرقة المفاجئة... وَرَدَ في ذهنه أنهم ربما أخطأوا ولم يكن المقصود هو وأنهم يكفِّرون عن سيئاتهم، ولكنه لعنهم في خاطره برغم كل هذا الحنان.

مسَّد الطبيب يده حتى انتفخت عروق ذراعه ثم غرس الإبرة في أبرزها... صرخ بأعلى صوته وهو يقفز من مكانه. شعر بأن لهيباً جهنمياً يسري في عروقه وأوصال جسده وقلبه ودماغه... صارت أعضاؤه ترتجف وكأن صعقات كهربائية جبارة تسري بها... أحس بوقود يتسرب في شرايينه كماء النار... راح يصرخ ويقفز ويسقط ويستغيث حتى أُغمي عليه... قذفوا به في الزنزانة وقد صار لونه أزرق كغريق قذف به الموج.

في الصباح جاءه الشرطي، سحبه إلى الضابط.

ـ سأله الضابط: هل عرفت الرئيس المقصود؟!

ـ قـال: لا... نـعـم... لا... نـعـم... لا... لا... نـعـم.
حلمت بالرئيس.

كان يهذي.

ـ هاه!! تقول حلمت... كيف حلمت به؟!

استجمع قواه وكل ما بقي له من تركيز، ووجدها فرصة لعلها تخفف عنه بعض هذا العذاب قال: رأيت سيدي الرئيس في الجنة تحفُّ به ملائكة الرحمة.

ـ في الجنة يا ابن الكلب... آه حقاً كنت تفكر في موته إذاً... اسحبوه.

سحبوا جسده على بلاط بارد... ثم جروه على الدرج حتى تهشَّمت أضلاعه وتكسرت أسنانه ودخل في حالة إغماء... قذفوا به في الزنزانة... ولم يعد يشعر بشيء... إلا حينما أخذوا يمسِّدون ذراعه ويغرسون الإبرة في وريده... تركوه في زنزانته يتخبط ويصيح إلى أن انقطع صوته.

في الصباح... رشّوه بماء بارد وأسقوه كأس حليب ثم أنزلوه إلى القبو... فتحوا فمه وجروا لسانه حتى ملخوه من عروقه وتركوه متدلياً... أغلقوا فمه على لسانه وربطوه بشدة... صار لسانه متدلياً كلسان الخروف المذبوح... ثم جاؤوا بقط متوحش شرس مدرَّب وتركوه ينهش لسانه حتى مزقه وقضمه.

جاؤوا بقطه الأبيض أمامه، قالوا له: من هذا؟ أتعرفه؟ انطق.

راح يحدق فيهم وفيه وهو يحاول أن يغيِّر مكان لسانه.

قبض الشرطي بالقط من ذيله وراح يضرب به وجه نجيب ورأسه حتى سقط القط ميتاً ثم رماه في حضنه.

* * *

صار الناس في ما بعد يشاهدون الدكتور نجيب فرحان في الأسواق وهو يحمل قطاً أبيض والأطفال يتراكضون خلفه ويتصايحون:

المجنون أبو قطة... نجيب أبو قطة... المجنون أبو قطة!

الثـأر

تسلل بخفة إلى غرفة أبيه وسحب من جيبه مفتاح الشاحنة الصغيرة... ثم انساب مواربأ باب البيت بهدوء وسكينة... جاب الشارع ثم انعطف نحو الساحة التي يقوم عليها المسجد حيث يلعب صبيان الحي الكرة بعد العصر هناك...

أوقف السيارة داخل الساحة تحت شتائم اللاعبين... حين قفز عُبيد إلى جانبه ضغط على كابس البنزين فقفزت السيارة مثيرة غباراً في وجوه اللاعبين فأعقبوه بحجارة وشتائم لم تصل إليه... قال سويلم: ابن الفأر فأر...

وصاح حميد: يا سارق سيارة أبيه... يا ابن الكلب... وتوعده هملان بأنه سيكسر رقبته، ويحرم الاثنين من اللعب معهم...

طافا بالسيارة في أطراف الحي. وقفا عند بقالة وشربا «بيبسي» وأكلا بسكويتاً بالتمر... قال صاحب البقالة: لو عرف أبوك يا حسين أنك تعبث بسيارته فإنه سيكسر ظهرك...

مدّ حسين ذراعه وحسر طرف كمه ثم أخرج زنده وقال: هذه زند رجل. سأكافح مع أبي... أتريد أن أنقل لك شيئاً وبنصف الثمن؟ اغتبط سعيد.

حُمِّلت السيارة بالمؤونة، وراح حسين يقودها بثقة... أوصل حسين البضاعة، وانطلق عائداً إلى سعيد.

* * *

عند منعطفٍ خطر حيث تصب الطرق كلها في دوار صغير في مدخل الحي... كانت أمامه سيارة خضراء... صرخ حسين وعبيد دفعة واحدة: هذا هو!! وصرخت معهما عجلات السيارة... في لحظات كان عبيد ينزف من رأسه، حيث انغرست زجاجة ضخمة فوق جفنه... أما حسين فقد سقط شبه مغمى عليه... أما السيارة الخضراء فقد استقرت في المنحدر بعد أن تدحرجت.

تجمع الناس... وضعوا حسين وعبيد فوق الرصيف... وانطلق عدد منهم إلى السيارة الخضراء... كان فيها راكب واحد... قال بعضهم: لا تقتربوا منه. إنه ينزف وفي حالة إغماء...

في سيارة الإسعاف تبادل حسين وعبيد النظرات... قاطع نظراتهما الضابط قائلاً: هذه نتيجة التهور وقلة التربية والإهمال... ماذا عملتما في نفسيكما وفي نفس رجل بريء يوشك على الموت؟!

تبادلا النظرات مرة أخرى في صمت مبهم...

أُدخل صاحب السيارة الخضراء إلى المستشفى في حالة إسعافية.

تقول المعلومات الأولية من خلال البطاقة التي وجدوها في جيبه إنه «خواجا» باحث اجتماعي... وإنه يعمل بالحي منذ زمن طويل، وأنه رجل مسالم يبتسم دائماً في وجوه الأطفال، وإنه متعاون مع أهل الحي حتى في معالجة أمورهم السرية، ولديه حبوب سرية لها مفعول السحر يمنحها شبانَ الحي فتجعل الشاب إذا تناولها مبتسماً منشرح الصدر. وهو يُقرض من لا يستطيع شراءها إمعاناً في إحسانه... وقد انتشرت بين شبان الحي حتى تراهم دائماً مبتسمين ضاحكين بسبب هذه الحبوب الطيبة من هذا الباحث الطيب الذي يشاع عنه أنه يحب العرب والإسلام، وأنه سيعلن إسلامه قريباً...

والذي عُرف عنه أيضاً أن بيته ينشط ليلاً، وتحيط به كلاب هادئة لا تنبح إلا عند الاقتراب أو الالتصاق بالحائط...

* * *

بيّنت الأشعة أن حسين مصاب بكسر مضاعَف في الفخذ وبكسر ضلعين في جانبه الأيمن... أما عبيد فمصاب

بجرح عميق في الجمجمة وكدمات شديدة في الكتف الأيسر وحول الرقبة.

وُضع عبيد وحسين في غرفة واحدة وكان الضابط قد قال لهما: ويلكما من الذين سيثأرون له إن حصل له مكروه أو مات...

وكانا يسألان باستمرار عن صحة «الخواجا»... يسألان الدكاترة والممرضات بإلحاح وقلق شديدين إلى درجة جعلت الأطباء يقلقون على حالتيهما النفسية... بل وجدوا أن الأمر يستدعي ذلك...

جلس الطبيب النفسي أمام حسين وهو يسأله: هل أنت قلِق على حياة الخواجا؟!

حياة الخواجا... حياة الخواجا؟!

طبعاً... طبعاً!! حياة «الخواجا»... الثأر... الثأر طبعاً... يهمني أن أعرف يا دكتور. يهمني أن أعرف...

هل أنت منزعج؟ إلى هذا الحد؟ طبعاً سوف أنزعج لو...

لو ماذا؟... لو...

ماذا يا حسين؟

لكن حسين راح يردد:

آه!! الثأر... الثأر...

لا تخف... قالها الدكتور... لا تخف سيكون بخير. ولكن قل لي: هل ترى أحلاماً مزعجة في منامك؟

جداً... جداً...

قل لي... قل لي... مثل ماذا؟

أرى أعاصير... ورياحاً ومطراً أسود كأنه رصاص... ثم تسيل الشوارع بالدماء... يعوم فيها أطفال مهشَّمو الرؤوس. أرى عظاماً تتكسر... وقلوباً وعيوناً تتساقط كالكور المطاطية ثم تطير في السماء...

نعم... نعم... وماذا ترى أيضاً؟

أرى أطفالاً يسيرون كالسيول في الشوارع أمامهم بنادق ومدافع مفتوحة الأفواه، وخلفهم زبانية يضربونهم بمقامع من حديد...

أرى وجوهاً كوجوه الذئاب... تفتح أفواهها ولها أنياب كأصابع الديناميت...

وقبل ساعة كنت نائماً فرأيت أبي ـ رحمه الله ـ يبكي فوق رأسي...

أبوك يا حسين؟ أبوك لم يمت... أبوك حي!! وكان قد وضعك في حضنه قبل قليل وهو يبكي عليك. كلنا رأيناه!!

رأيتموه كلكم وهو يحضنني يا أولاد الكلب... أنت تكذب... لا، أبي مات... وأمي ميتة... لا أحد لي... أنا أبو

نفسي... أنا وَلَدْت نفسي!! هل فهمت يا دكتور؟ كلنا أبو نفسه... ثم صاح: أليس كذلك يا عبيد؟!

رد عبيد: نعم... نعم... أنا ابن نفسي...

وأردف عبيد: وأنت يا دكتور ابن نفسك... لا بد من أن تقود سيارتك بنفسك... وتشق بطن المريض بنفسك، وأن تقتل الذئب الملعون بنفسك. وعلى فكرة يا دكتور الذئب يحب الذئاب، ولكنه ابن نفسه.

آه... وتابع حسين: لا نريد آباء يجلبون لنا الخبز... ويضربوننا كي ننام...

وصاح عبيد ولا نريد أهلاً... إنهم يمنعوننا من أن نذهب إلى الموت... كل واحد حر في حياته...

تفّ لا نريد أهلاً... إنهم جبناء... تفّ...

رد الدكتور: كلامكما صحيح... كل واحد أبو نفسه وولدُ نفسه، وحر في نفسه...

لا حول ولا قوة إلا بالله. لا بد من نقلهما إلى مستشفى الأعصاب، فقد أثرت الصدمة فيهما كثيراً...

ولكن قل لنا يا دكتور... قالا معاً: كيف صحة الخواجا؟

بخير... بخير... اطمئنا...

طبعاً، نريد أن نطمئن... الثأر... الثأر...

حينما كانت الممرضة تضع المصل في ذراع حسين رنَّ جرس الهاتف!! فتناولته ولكنها صرخت: مات «ديفيد»... مات الخواجا ديفيد!! آه! يا للكارثة.

قفز حسين من سريره وقفز عبيد وتعانقا بحرارة وفرح أمام ذهول الممرضة ليندا... وهما يرددان: مات ابن الكلب...

الثأر... الثأر...

وهما يتعانقان سقطت من بينهما صورة التقطتها ليندا في دهشة لطفل صغير كالدرَّة يموت بالرصاص في حضن أبيه.

نظرية حسان

جلس الدكتور منصور على مكتبه، وراح يمسح العرق عن جبينه، وقد وضع نظارته أمامه فوق كومة الأوراق وكتاب المحاضرة التي ألقاها... وقال متأففاً: مهنة التدريس مهنة نكدة ومؤذية.

ـ رد الدكتور سليمان... هذا اكتشاف جديد. ألستَ من المتحمسين للتدريس؟!

ـ صحيح ولكنني بدأت أشك في نظريتي ونظرتي نحوه!! لقد كاد الطلبة يأكلونني عندما رحت أشرح لهم نظرية داروين...

ساد الصمت قليلاً. فقد كان الدكتور سليمان مشغولاً بتصحيح بعض الأوراق، والدكتور منصور يريد أن يخلد إلى قليل من الراحة الذهنية.

أما الدكتور عثمان فقد كان صامتاً يتأمل في السماء الصافية من خلال النافذة الزجاجية الكبيرة.

ـ دخل الدكتور حسان؛ أستاذ الفلسفة، وهو يصفر بلحن أغنية شعبية قديمة... قائلاً: حضرات الدكاترة صباح الخير.. ما لكم هكذا تبدون واجمين؟! هل حلت كارثة بأميركا أو بروسيا؟ أو ببائع شطائر الفول يا دكتور منصور؟! فتح حقيبته وهو يدندن، ويصفر بالأغنية إياها وقد أخرج «شطيرة فول» اشتراها للتو وراح يلوكها... وبعد أن ازدرد اللقمة الأولى صاح بهم: يا جماعة، ما لكم اليوم كأنكم عجائز في مأتم؟!

ضحك الدكتور سليمان وهو يضع يده على نظارته، ويرفع قلمه عن الورقة وهو يقول: الدكتور منصور!!

ـ ما به؟! خيراً إن شاء الله.

ـ كاد الطلبة يأكلونه!!

ـ قال الدكتور حسان مداعباً: سيكون وجبة دسمة.

الدكتور منصور سمين ومترهل الجسم برغم أنه ليس كبيراً في السن.

نظر الدكتور منصور إلى حسان قائلاً: أنا أستغرب جداً... كيف تفطر على جرة فول يومياً مع توابعها، وما بين الحصة والأخرى تقضم هذه «السندويتشات»... ومع هذا فجسدك نحيل وأشهب وكأنك في قلب مجاعة أفريقية!!

ضحك الدكتور حسان وهو لا يزال يلوك لقمته... ويقول: أنا من سلالة لا يزيد وزن فردها عن ستين

كيلوغراماً حتى لو أكل حيتانَ المحيطات، وشرب مياه الأنهار!! فاطمئن لن أكون مترجرجاً في يوم من الأيام...

ـ ضحك الدكتور منصور وهو يقول: لا شك في أن السلالة الكريمة تنتمي إذاً إلى سلالة السحالي!

ـ غمزه الدكتور سليمان قائلاً: أراك خرجتَ عن نظرية داروين، فلماذا تلوم طلابك؟!!

ـ ضحك الجميع.

وأتبع حسان: دعونا نتكلمْ بجد... أليست نظرية داروين مثار جدل يومي في الأوساط العلمية في الغرب... ثم بدأت هذه النظرية تأخذ في الأفول؟!

ـ رد الدكتور منصور: هي مجرد نظرية قائمة على قرائن، وهذه القرائن لم تكتمل بعد لكي تصل النظرية حدَّ اليقين... ولم تنتف نهائياً كي تصل حدَّ الرفض والإسقاط... ونحن نتحدث عنها كنظرية عليها ما عليها ولكنها تظل موجودة وقابلة للنقاش والمداولة.

ـ قال الدكتور حسان: يا جماعة، أنا تراودني منذ زمن نظرية مخالفة لنظرية داروين!! وكنت أنوي التحدث عنها ولكنني متردد خشيةً من الهيجان والضجيج والاتهامات التي قد تؤدي بي إلى ما لا تُحمد عقباه.

نظروا إليه جميعاً في دهشة ولهفة لما سيقول...

ـ وما هذه النظرية؟!!

ـ النظرية هي نظرية «الانحطاط والتخلُّف»، أي إنها معاكسة تماماً لنظرية داروين... «الارتقاء والتطور».

إن النظرية تعتمد على أن الإنسان وُجد كاملاً «وهذا ما أعتقده طبعاً كمؤمن»... أما مسألة التطور والتقدم الصناعيين فقد جاءت من خلال التراكم المعرفي والتجارب الطويلة عبر حياة الإنسان... فهي التي أوصلتنا إلى حضارة اليوم... وليس لأن إنسان اليوم اكثر تكاملاً من الإنسان القديم، بل العكس... فإنسان اليوم أكثر تهوراً ونقصاً في حكمته، وهو يسعى إلى تدمير نفسه بشكل نهائي...

ثم إن هناك قرائن أخرى تؤيد ما ذهبت إليه...

ـ قال الدكتور سليمان: مثل ماذا؟

ـ نعم... هناك كائنات جبارة تدرَّجت نحو الانحدار حتى انقرضت وبقيت سلالاتها الضعيفة كالديناصورات... فالديناصورات ـ في نظري ـ لم تنقرض دفعة واحدة، وإنما تدرَّجت نحو الضعف والانحطاط حتى وصلت إلى التماسيح وكل فصائل السحالي!

الحمير مثلاً منحدرة من سلالة الخيول، أي من السلالة الأرقى... القط منحدر من سلالة الأسد، أي من السلالة الأقوى...

ـ رفع الدكتور عثمان رأسه قائلاً: هذه تحتاج إلى دراسة حقيقية...

ـ تابع الدكتور حسان: ليس هذا في عالم الحيوان فقط بل في عالم النبات... فهناك آلاف النباتات الضعيفة المنحدرة عن أصول قوية... بل إنه من الواضح لعلماء الزراعة أن بعض النباتات صارت تضعف في شكلها وطعمها عما كانت عليه منذ سنوات قليلة، كالتين والتفاح والأعناب... فلم تعد بالكبر والطعم اللذين كانت عليهما قبل عقدين أو ثلاثة في بعض البلدان.

ضحك الدكتور منصور وقال: «والله، التفاح في بلدنا صار زي النبق»...

استمر د. حسان: وهكذا فإننا نرى كثيراً من الأشياء في عالمنا تسرع نحو الانحدار.

وبناء على ذلك، فإن القرد في أصله إنسان... فربما إن فئة من الكسالى في فترة من الفترات، لم تتمكن من مقاومة الظروف الصعبة كالرحيل والدخول في المعارك... فظلت في كسلها واندمجت مع كثير من البهائم فأخذت طباعها وراحت تقلدها، فانحدرت هذه الفئة تدريجياً وانمسخت إلى عالم القرود.

قال الدكتور سليمان بلهجته: «يخرب عقلك يا دكتور حسان دانت بتثول كلام خطير».

وقال الدكتور منصور: رغماً عن عدم قناعتي التامة... بما تقول فلماذا لا تعلن هذه النظرية، فهي قابلة للطرح والنقاش.

رد الدكتور حسان: ولكني خائف.

ـ لماذا؟

ـ لأن النظرية لم تكتمل بعد.

ـ كيف؟!

ـ لأنني إذا سلَّمت بالنظرية بمعنى أن الإنسان يرتقي ويتطور بناءً على اكتساب المعرفة والتجربة، وأنه ينحدر ويتخلَّف كلما ابتعد عنها ـ وهذا ما أؤمن به طبعاً ـ فإني مضطر إلى أن أكرر الإعلان عن خوفي.

ـ وما سبب الخوف؟ قالوها جميعاً...

سكت قليلاً ثم تابع: أخشى على رأس الإنسان العربي...

ـ رأس الإنسان العربي؟!

ـ نعم... رأس الإنسان العربي. لا بد والحالة هذه من أن يصغر لأنه لم يعد يستعمله، بل لم يعد قادراً على استعماله... فما دام غير قادر على استعماله في الدفاع عن حقوقه وممتلكاته... وما دام يستعمل رأس غيره في حل مشكلاته... ويستعمل رأس البندقية في حواره مع أهله... وما دام

يستورد أعواد الثقاب، وإبر الخياطة وأمواس الحلاقة، والمناديل التي ينظف بها أجزاء جسده!! فلم يعد مضطراً إلى أن يستعمل رأسه... لهذا فمخه معطَّل عن العمل، وأي شيء يُعطَّل عن العمل لا بد له بطبيعة الحال من أن ينكمش ويضمر ويضمحل...

وعليه، فإن الأجيال العربية القادمة ستولَد بلا أمخاخ!! جماجم فارغة، ليس فيها إلا عيون تنظر، وآذان تسمع، وأفواه تمضغ.

قالوا جميعاً: لا حول ولا قوة إلا بالله.

تابع في حماسة: أما الأجيال التي تليها، فأخشى أن تولَد بأذيال وأظلاف وحوافر، وهذا نتيجة ما أسميه نظرية «الانحدار والتخلف» المقابلة لنظرية «الارتقاء والتطور»...

فالإنسان يتطور تطوراً علوياً أو تلقائياً كلما طور مخه، ويتخلَّف ويتأخر ويهبط سفلياً كلما تعطل مخه.

راح الدكتور سليمان يهز رأسه بتلقائية مَن يعني التأييد والموافقة.

واستمر حسان متابعاً: كما إنه يتخلص كلما تطور عقله من صفات البهائم، ويعود إليها بفضل تخلُّفه العقلي. وقياساً على هذا المنطق فإنه بعد جيلين أو ثلاثة سيصبح الإنسان العربي منسوباً إلى فصيلة القرود الراقية المتطورة... لأنه

حينها سيظل محافظاً على بعض المعارف. فهو سيملك القدرة على أن يلبس، ويأكل، ويرقص طبعاً. فالرقص فيه صفة أزلية... ولكنه قد يخطئ فيلبس حذاءه الأيمن في قدمه اليسرى... وهو بهذا سيصبح كائناً سِرْكِياً في مسرح الحضارة المتقدم...

ثم تبسم الدكتور حسان وقال وهو يضحك: ولكنه مع هذا سيحقق مكاسب وانتصارات عظيمة.

قال الجميع: نعم؟!!

- طبعاً، سيحقق مكاسب عظيمة لعل أهمها أنه سيتخلص من أمراض العصر القاتلة: كالذبحة، والجلطة، وضغط الدم، ومرض السكر، وقرحة المعدة، والقولون العصبي، وجميع الأمراض النفسية... وذلك بسبب موت الحاسة الانفعالية لديه. ومن ثم فإن جهازه الهضمي سيكون كجهاز الهضم لدى الثور... وإن كان سيصبح أقل منه إحساساً بمراحل.

صاح الدكتور عثمان في ذهول قائلاً: «أمّا يا جماعة لو بقى الكلام اللي بيقوله الزول دا صحيح دي تبقى وقعة والله»!

دموع في الظلام

وضع إبريق الشاي أمامه على مكتبه وسكب فنجاناً...

لون الشاي أسود قاتم وعكر... أسفل الإبريق أسود... وورقة «اللبتون» المتدلية أكلت النار نصفها... وضع حبتي سكر... كان في الماضي حريصاً يشرب الشاي من دون سكر... أو يستعمل السكرين... أما الآن فلم يعد ذلك مهماً!!

شرب الفنجان الأول... أحس برهق شديد وجوع... آه! أين يذهب... فمنذ الصباح الباكر وهو لم يبرح الغرفة العلوية في منزله هذه التي اتخذها مكتباً خاصاً منذ أول يوم استقر في هذا المنزل.

فرز الأوراق وصنَّفها إلى ثلاثة أصناف: الأول، وهو ما يراه مفيداً، وضعه في حقيبة خاصة... الآخر، وهو ما يتعلق بالالتزامات التي كتبها على نفسه أو الديون أو أي نوع يشكل عبئاً عليه - وأصولها في يده -، فجمعها ووضعها في تنكة وقام بإحراقها. وصنف لم يتخذ بشأنه قراراً... ورأى

من الأفضل التريث في وضعه فتركه على الجانب الأيمن من المكتب بجانب التليفون الذي فصله ليتفرغ لعمل اليوم...

أخذ يفكر بإعادة الحرارة إلى التليفون... ولكنه نظر إلى الساعة... أخته الكبرى نائمة مع أولادها الآن... أما الأصدقاء ـ وضحك بمرارة ـ ولم يكمل التفكير فيهم...

ألقى نظره على حيطان المكتب... تقابله صورة يعتز بها لمجموعة من رجال الأعمال في بلد عربي على شاطئ البحر يتوسطهم بجسده المعتدل وشكله المتميز... كان مدعواً إلى العشاء لدى الشركة بعد توقيعه أول صفقة تجارية هامة كانت قفزته الحقيقية في مجال حياته التجاري.

نظر إليها واستعاد الزمان والظروف التي كانت تحيط به أيامَها، وتنهد من أعماقه ووضع كفيه فوق عينيه... ثم عاد يحتسي الشاي الذي وجده بارداً ومُراً.

تأمل الصورة مرة أخرى... قام من مكانه وسار إليها بخطوات هادئة حتى وقف أمامها. تفحص نفسه فيها جيداً ثم ابتسم وهو يهز رأسه... نظر إلى سكرتيرة مدير الشركة وشعر بانقباض... كم حقد عليها ذات مرة برغم لطفها وجمالها... زم شفتيه وضحك ضحكة مكتومة... هناك أشياء نحاول ان نخفي أحياناً أسبابها حتى عن أنفسنا وهذا ما فعل... قطع نصف التفكير في سبب حقده عليها... راح

يلقي نظره على ما حوله... الشهادة!! شهادته هو، في برواز خشبي من النوع الفاخر المطلي بماء الذهب... همّ بأن يسحب الشهادة من البرواز ويلقيها في التنكة ويحرقها... شعر بأن هذه الشهادة سخيفة جداً لم تنفعه يوماً في حياته... دائماً كانت شهادة على شقاء و«بهدلة» طفولته وصباه... ستة عشر عاماً من الدراسة أمضاها ما بين عصي المدرِّسين، وأقبية المدارس ورعب الامتحانات... وحينما نجح يوماً في حياته وصار تاجراً مرموقاً لم يكن لهذه الشهادة أي دور.

لكنه صرف النظر عنها وكأنه لم يعد يكترث بالتفكير في ما حوله في حالة من الإعياء والإحباط جعلته فاقداً شهيةَ ممارسة أي شيء حتى التفكير.

عاد إلى مكتبه وهو يخوض الأوراق المبعثرة، والسجاد الذي علاه الغبار... كان الجوع يغتال معدته فعلاً... تمنى أن تتحول قاعدة الأقلام والروزنامة الجلدية إلى خبز ليأكله بالشاي المر.

وقف أمام النافذة وألقى نظرة على البقالة المقابلة... لاح لناظريه الخبز، والجبن، والبيض المرصوص، والتفاح اللامع، والخيار، والخس الطري، فسال لعابه... لبس حذاءه وهمّ بالنزول... دس يديه في جيوبه فوجدها فارغة... راح يفتش في معطفه، لم يجد إلا دفتر الشيكات... آه! نظر إلى

رقم الحساب، كان رقماً عظيماً ومدهشاً يجعل مدير البنك يركض لاستقباله!! وهو الآن مجرد نقط سوداء...

أخذ دفتر الشيكات. وضعه فوق المكتب وكتب رقماً طويلاً ثم وقّعه في عبثية... كان توقيعاً رائجاً ولامعاً ومثيراً لشهية التجار ذات يوم... ها هو الآن كدودة ميتة... يوقظ الحسرة والأسى.

تلمَّس رأسه وأعضاء جسده وشعر بالحركة والحرارة فساوره شيء من الاطمئنان.... أطرق في ذهول... ثم ضرب كفاً بكف!!! هذه هي الدنيا... ربح وخسارة... انتصار وهزيمة.... قال في نفسه: هذه ليست هزيمة... فالمهزوم يعاود الاستعداد ويعاود لمّ أطرافه وجمع شتاته لخوض معركة أخرى... وأنا الآن على حافة الموت... بل ها أنا أهوي إلى هوَّة سحيقة لا قرار لها.

لم يجد سبباً مقنعاً لهذه النهاية التعسة... كان يريد أن يحافظ على مكاسبه فيضطر إلى دخول المغامرة... لكنه كان محاصَراً بمن هم أقوى، ولم يكن يملك الذكاء أو الخبث الذي يجعله يبتعد عن الطريق... راح يعوم في مناطق أسماك القرش الشرسة... لم يدرك أنها خطرة... بل لم يكن يدرك أن المنطقة محرَّمة على مَن هو مثله... وأنها لهم فقط...

دخل منافساً لأولئك وهو لا يزال طري العود لا يملك

السلاح الكفيل بدخول المعركة... وكانوا ينظرون إليه بسخرية من سذاجته... يدفعونه من حيث لا يشعر ليدخل المناقصات بالسعر الاضطراري... فترسو عليه ولكنه يخسر. وكي يستمر فعليه أن يجرِّب مرة... ومرتين... وعشراً... فكان يربح مرة ويخسر ثلاثاً... ولا سبيل إلى التوقف... فقد اضطر إلى تعهدّات البنوك... ودخل في المتاهة المعقَّدة ووجد أنه يسير في أي طريق يظهر أمامه، غير أنه لم يكن يفضي به إلى الخروج من المتاهة... وركِبته الديون البنكية وتكاثرت عليه الالتزامات. حاول أن يحافظ على شيء يكفل له عَيْشه وسكنه فأخفق... هذا المنزل... أو هذا القصر... حيث يقوم مكتبه الآن في الدُّور الثالث... كلَّف بناؤه ملايين، وصار الآن ضمن ممتلكات البنك كجزء من تسديد الديون المستحقة. أدواره صارت فارغة تماماً... والحياة فيه مستحيلة تماماً... زوجته اضطرت إلى أخذ أولادها والسكن مع أبيها... أثاث المنزل وسجاده ولوحاته اضطر إلى بيعها... لم يبق له إلا هذه الغرفة وما فيها من غبار وأوراق قام بفرزها وتصفيتها قبل أن يسلِّم القصر للبنك... وهذه هي الليلة الأخيرة التي ينام فيها بمنزله.

يا لوحشة الحزن وقسوته حين تقضي ليلتك الأخيرة في بيتك مطروداً منه تعاني زمهرير التشرد والضياع... أي مرارة يمكن أن يتحملها قلب إنسان يفقد مأواه... أي حزن يمكن

أن تتحمله المشاعر وأنت تمر بغرف أولادك وملاعب طفولتهم... وذكرياتك معهم...

يا لوحشة الحزن والضياع... وذرفت عينه دمعاً.

عاوده وجع الجوع مرة أخرى وراح يفتش في جيوبه مرة أخرى لعله يجد ثمناً لقرص خبز وقطعة جبن، ولكنه لم يجد شيئاً... راح يمارس رياضة الصمود في وجه الجوع.

أخذ يفتش أدراج المكتب فلا يجد إلا أختاماً وأوراقاً بيضاء... وصوراً تذكارية... وأشياء لم تعد تعنيه... في الدرج الصغير الأعلى حين فتحه وجد قلماً ذهبياً!! شعر بغيبوبة وذهول... هو القلم نفسه... كيف نسيه أو تناساه؟! عمره أكثر من عشرين عاماً!! أهداه إياه شخص عزيز... عزيز جداً... بمناسبة النجاح. لكن بريق نجاحاته التجارية أنسته كل شيء حتى الناس الأعزاء. أخذ القلم فقلَّبه ثم قبَّله...

شعر بإثم عظيم، بل شعر بأن القلم يمارس عليه أسوأ أنواع الانتقام...

لماذا ننسى الأشياء الجميلة في حياتنا؟ ولماذا كل هذا الحضور المدهش حيث تخصب وتطفر الذاكرة مرة أخرى... حين نقع صدفة عليها أو على ما يذكّرنا بها؟ كيف لها أن تستحضر الأشياء بكل جمالها؟ وكيف تُؤَنِّبنا حدَّ الذبح؟ ماذا لو اتصلتُ بذلك الشخص الحبيب وقلتُ له بعد عشرين عاماً: مساء الخير؟ هل سيعرف صوتي؟ وهل سيمتلك

صوتي الجرأة على مواجهة صوته؟ وقبل كل ذلك أين هو الآن؟ ما لونه؟ ما شكله؟ ماذا فعلت به الأيام؟ وماذا فعل بها؟ مؤلم أن تجد نفسك تخاف مواجهةَ الأعزاء... حتى بصوتك... هذا هو الخسران المبين!!

وضع القلم في جيبه... وهبط السلم. ممرات البيت خالية... ومنعطفات السلّم موحشة... رأى خيال قطة تعبر أحد الممرات. صورة ظلها في الجدار كانت من الوحشة بحجم الجمل الأسود!! وهي تموء... تذكَّر صورة طفلته... طالما لعبت مع هذه القطة وأَلِفَتْها... وهي الآن تثير الفزع والخوف.

وتوالت الأحداث وتواكبت في خاطره سريعة... وحين أصبح خارج بوابة القصر كان ذهنه ينتقل إلى همّ آخر...

وقف أمام البقال وقال: أريد جبناً وخبزاً وتفاحتين...

وضع له الأشياء في كيس... قال: سأدفع لك الحساب غداً. سحب البقال الكيس بسرعة قائلاً:

● الفلوس قبل الخبز.

حاول أن يقنعه بأنه سيدفع له غداً، ولكن بلا فائدة.

أخرج دفتر الشيكات... ولكن البقال ضحك وقال: خبز بشيك! يفتح الله.

فكر... وضع يده على جيبه... لمس القلم الذهبي...

قال: هذا هو المنقذ... أخرجه وراح بريقه يلمع تحت أضواءِ البقالة وعينِ البقال... كاد يتخلّى عنه للبقال... كاد يستسلم... لكن شيئاً في داخله صرخ: لا...... أعاده إلى جيبه... مشى في الطريق وقد وضع يده على جبينه وهو يقول في ذهنه: لو فعلتُها لارتكبتُ أكبر حماقة، بل أعظم جرم في حياتي.

نظر إلى القلم وقلبه واجف مرة أخرى وقال: ربما أبدأ حياتي بك من جديد.

تمدد على فراشه البسيط في مكتبه... توسد ذراعه وحاول أن يبكي... هناك حسرة كالحجر الثقيل تثقل على صدره، وغصة كالجمرة في حلقه... حاول أن يُخرجها بدموعه، ولكنه لم يستطع ذرف دمعة واحدة... حاول أن يتذكر آخر مرة بكى فيها ولكنه فشل... يبدو أنه لم يبك منذ أيام الطفولة... وأن الدموع لم تخرج من عينيه إلا في حالة الاستغراق في الضحك أيام الفرح في زمن العزّ.

للحزن قسوة... حتى في البكاء!!

للحزن مقدرة على سد منافذ الدمع! آه! يا للعجز... أسند ركبتيه إلى صدره، و«تقرفص» في فراشه ونام.

في النوم رأى حلماً! رأى أمه تضعه فوق رجليها وتمسح على شعره بيدها... وقد ألقمته ثديها، وراح يرضع... يرضع... رضع حتى شبع لبناً لذيذاً كالعسل.

أفاق من نومه شَبِعاً مسروراً... ولكنه حين فتح عينيه باحثاً عن أمه لم يرَ إلا هيكلاً من الظلمة... حينها بكى... بكى حتى غرق بدموعه في الظلام.

رئيس التحرير

دخل عامر مكتبه وهو يتمطى... طلب من السكرتيرة ألّا تعطيه أية مكالمة وألّا تسمح لأحد بالدخول. جلس على كرسيه «يتمغط» ويتثاءب طويلاً... يلوي فمه... يحدق في الفراغ ويمد يديه إلى الأعلى وهو يدير رأسه يميناً وشمالاً، ثم يعيدهما إلى الطاولة باسترخاء وفتور... يفرك عينه اليمنى ثم اليسرى... يرفع يديه مرة أخرى وهما متباعدتان وقد فرد أصابع يديه وكمش أصابع رجليه وهو يمدهما بشدة... ثم جعل جسده ينزلق على الكرسي حتى أصبح رأسه موازياً لرأس الكرسي... ثم رمى يديه إلى الطاولة وسحب رأسه بصعوبة ووضعه بينهما.

هذه هي عادته إذا وصل إلى مكتبه مبكراً... أي قبل الواحدة.

السكرتيرة تعرف مزاجه وطريقة ابتداء عمله... فهو عادة يقضي نصف ساعة يسخن جسده ريثما تدب الحياة في عروقه فيصبح قادراً على تحريك أعضائه بشكل عادي وتلقائي.

طلب من السكرتيرة أن تحضر القهوة... وضعت صينية القهوة... نظر إلى وجهها نظرة غامضة فوقفت تتحسس شعرها وتعدل من هيئتها... ثم استدارت لتحضر الملف اليومي، ولكنه استوقفها وطلب إليها ألا تحضر شيئاً!!

أشعل غليونه، وراح يدخن ويرتشف القهوة بتلذذ وشرود. يراقب دخان الغليون وهو يتصاعد في كسل وتَشَتُّت، حيث يتلاشى قبل أن يلامس السقف.

طلب فنجاناً آخر وراحت يده المرتعشة تحمل الفنجان إلى فمه فتمتزج رائحة الدخان بالقهوة فينتشي ويشعر بأن أعضاء جسده بدأت تستيقظ.

قالت السكرتيرة وهي تقف أمامه: «هند على التليفون» قال: اصرفيها!! قالت: إنها هند. قال: قلت اصرفيها. زمَّت شفتيها، ورفعت كتفيها ثم أدبرت وهي تردد بصوت خافت لا يخلو من تشفّ: يا مغيّر الأحوال!

نادى السكرتيرة وسألها إذا كان لديها جهاز تسجيل؟ فاجأها الطلب!! قالت: لا... ولكن لدى المحررين بلا شك. قال: لا... ما لديهم لا ينفع... دبّري لي جهاز تسجيل كبيراً.

حينما وضع الشريط في الجهاز راحت الأغنية تلعلع في المكتب... أخذت منه النشوة مأخذها واستبد به الطرب فقام

من خلف مكتبه إلى وسط الغرفة، وراح يهتز ويصفق ويضرب بأصابعه.

أسرعت السكرتيرة وأغلقت الباب... لكنه نهرها وطلب إليها أن تتركه مفتوحاً.

تسرب صوت الأغنية إلى المكاتب المجاورة بل إلى غرف الدّور كلها. توقف العاملون للإنصات. بعض المحررين والسكرتيرات أخرجوا رؤوسهم وتزاحموا في النوافذ ليستجلوا الأمر... حتى السكرتيرة «لميا» حشرت رأسها بين الرؤوس حتى سقطت «بكلتها» على البلاط فانتفش شعرها المجعد المصبوغ فاندحرت باستياء.

أعاد الأغنية مرة أخرى، ورفع صوت جهاز التسجيل أكثر. هذه المرة صار يتابع الأغنية بصوته حتى علا صوته على صوت المغني.

لم يجرؤ أحد على السؤال... ولكن العيون والآذان كانت جريئة، فالكل كان ينظر في استغراب ودهشة... وراحوا يتساءلون في صمت هل اختل رئيس التحرير؟! أم أنه لا يزال تحت تأثير بقايا السهرة؟!

صمت التسجيل وبدأت الرؤوس تختفي من النوافذ وهي أكثر حيرة ودهشة.

طلب السكرتيرة... أعطاها الشريط وقال: هذا هدية من

«جودي». انسخي لي منه ثلاث نسخ فوراً.

حنت رأسها في إذعان، وبعد أن سارت بضع خطوات سألها:

ـ هل وصلت كلمتي؟!

ـ لا لم تصل. لم يبعثها المحرر عطية بعد.

ـ استعجليه في بعثها.

ـ عادت إليه بعد لحظات قائلة: المحرر عطية مريض. لم يحضر، والكلمة لم تُكتب.

ـ استشاط غضباً مردِّداً: مريض... مريض؟! وما ذنبي أنا. اسأليه أن يأتي فوراً ليكتب الكلمة أو ابعثي له أحداً.

ـ عادت إليه في شيء من الارتباك لتقول له إن عطية لا يستطيع فهو يعاني صداعاً، ودرجة حرارته مرتفعة وقد منعه الطبيب من مغادرة الفراش.

ـ كاد ينفجر غضباً وصاح: ما العمل... أينزل العدد بلا كلمة رئيس التحرير؟ هذه مهزلة.

ـ ردت: صحيح هذه مهزلة! ثم تابعت: ولكن ما رأيك أن تطلب من صلاح أن يكتبها؟

ـ صاح بانفعال مضاعف: أنت حمقاء... صلاح ثرثار...

ثم إنه ليس في مستوى كتابة كلمة رئيس التحرير... الخطأ خطؤكِ أنتِ. لماذا لم تطلبي من عطية أن يكتب أكثر من مقالة احتياطاً لمثل هذا الأمر.

ـ ولكنك لم تطلب مني ذلك.

ـ وهل يُفترض أن أطلب منكِ كل شيء. أنتِ سكرتيرة، والمفترض أن تحتاطي لكل شيء... اطلبي لي عبد السلام من مجلة «البومة الذهبية».

ـ عادت لتقول له إن عبد السلام مسافر لتغطية مؤتمر حول «محو الأمية في العالم الثالث».

ـ اطلبي لي سراج الدين من جريدة «طوابير».

ـ مرة أخرى عادت إليه لتقول إن سراج الدين أُدخل المستشفى بسبب التهاب الزائدة الدودية.

ـ إذاً اطلبي عطية وخذي الكلمة منه بالهاتف.

ـ ولكنه يهذي بفعل الحمى.

ـ قلت دعيه يُمْلِ عليكِ.

ـ بعد فترة دخلت بالكلمة وراح يقرأ.

«.... أبو الدنيا!

.... أبو الكاتب حينما يكون قلمه منشفة، ووجهه منشفة.

هذا زمن العهر يا عبيد الأقلام.

هذا زمن الفجيعة يا حروف النخاسة.

كل هذه الجرائد والمجلات شبكات من حروف العنكبوت والذباب.

كلها حظائر للخنازير ودود النجاسة.

.... لا تؤاخذيني أيتها الحروف.

لا تؤاخذ همجيتي أيها القلم.

إني أغرق في بواليع الوقاحة.

.... أبو الحمى! آه، إني أهذي... إني أهذي!».

صاح بأعلى صوته: عمى! كل هذا يخرج منك يا عطية يا ابن الكلب؟!

راح يشد شعره ويصرخ: كل هذا الحقد في جوفك يا عطية... كل هذه السنين وأنا أعتبرك أمين سري.

صار يضطرب، ويرتعش: أنا وين أروح يا ربي! كلهم حاقدون... حاقدون.

ضحكتْ في أعماقها... فهي لا تذكر أنه ذكر ربه إلا هذه المرة... بل لقد ذكّرها بالمرحومة أمها... فقد كانت إذا أتعبتها هي وأخوتها راحت تولول وتنوح: أنا وين أروح. آه يا ربي... أنا وين أروح؟!

ردت بلطف: لا... لا... لا بأس... إنه يهذي... بسبب الحمى!

صاح بها: اطلبي لي أي حيوان موثوق به «من الجريدة»... أيمكن أن ينزل العدد بدون كلمة رئيس تحرير... هذه مهزلة!!

ارتبكت المسكينة واحتارت، فليس في ذهنها الآن من محرري الجريدة أي إنسان أو حيوان موثوق به يمكن أن يكتب كلمة سعادته!!

تغلبت على ارتباكها وشدت على أعصابها وراحت تردد: دعني أتدبر الأمر.

حدق في قفاها بسخرية وهو يلعنها في سره... ثم أراد أن يناديها ويلعنها جهرة ولكنها اختفت فانكفأ يزدري ذاته.

بعد لحظات وضُعت الكلمة أمامه... وراح يقرأها... قفز من مكانه وهو يحملق في الورقة وفي وجهها وصاح بأعلى صوته: هائل، عظيم!! من الرائع الذي كتبها؟!

ردت: المهم أنها أعجبتكَ، وليس مهماً من الذي كتبها.

- بل مهم... مهم جداً... قولي من الرائع الموهوب الذي كتبها؟ وراح يكرر السؤال وكأنه يستشفعها الإجابة.

- لكن هل حقاً أعجبتكَ؟ وهل تظن أن كاتبها عظيم كما تقول؟

ـ طبعاً، طبعاً... لكن أرجوكِ لا تحرقي أعصابي... قولي من هو الموهوب الذي كتبها؟

ردت بصوت مفعم بالهدوء البارد السام: أنا التي كتبتها يا سيادة الرئيس!!

اتسعت حدقتا عينيه حتى كادتا تخرجان من إطار النظارة، وراح يردد كالمغشي عليه: أنتِ... أنتِ... أنتِ؟!!

ـ نعم... نعم... أنا... أنا التي كتبتها يا سيادة الرئيس!!

الأديب

دُعي الأديب: ط. ز. إلى مأدبة أقامها الوجيه: هـ. ز.

أخذ الأديب يعد نفسه في وجل، فهو لم يسبق أن دُعي إلى مآدب الوجهاء والوزراء والأعيان... حياته كلها بين الكتب والأوراق والأقلام... ولكنه يعرف في قرارة نفسه أنه فوق الجميع، فهو أديب وشاعر مرموق، كتاباته تملأ الصحف وصوره كذلك... وبرغم ذلك فقد شعر في داخله بشيء من الوجل الغامض بسبب هذه الدعوة التي لا يعرف كيف يصفها، فهي وجيهة ومغرية، ولكنه لأمر ما تمنى لو أنه لم يُدعَ إليها أو هكذا أُوحي إليه!!

سار إلى بيت الوجيه وهو يستحضر في ذهنه ثقافته الأدبية كأنه سيدخل قاعة امتحان: شعر، قصة، رواية، حكايات وأحاديث، بل وتاريخ أدبي، ولكنه كان محتاراً، فقد كانت تلك الأشياء تراود ذهنه وتذهب كقطع متسارعة من سحاب تعبث به الرياح...

حين اقترب من قصر الوجيه وجد سيارات كثيرة فخمة

سوداء، ورزقاء، تظهر على بعضها ـ أناتن ـ هوائيات طويلة، يقبع سائقون داخلها وحراس... عام في داخله اضطراب وقلق ساحق وتمنى لو يعود... وجد الباب مفتوحاً ومجموعة من الحرس والعاملين تقف أمام الباب بشكل يدل على الفخامة والأبهة المنضبطة... وقف أمام أحدهم وكان طويلاً جداً فشعر بضآلة حجمه وهو يقدم نفسه إليه... تحدث الحارس العملاق في هاتفه الهوائي ثم أُذن له بالدخول...

وجد أمامه فناءً واسعاً ما بين البوابة والقصر... ممراً تحيط به الورود، وأزهار مختلفة الألوان والأشكال، ومساحات خضراء على اليمين والشمال مترامية الأطراف، فيرى الناظر إلى اليمين وسط المساحة كراسي غير منتظمة وأضواء خافتة متعددة الألوان تتوسطها بركة سباحة، ويلمح على الشمال حقولاً من الزهور وأشجار الياسمين تشكل خمائل مطرَّزة وموشحة بألوان الضوء، وأمام المدخل تشمخ نافورة ضخمة يتدفق منها الماء في علو مرتفع، وقد سُلطت عليها أضواء تدور وتنحدر مع الماء إلى بركة النافورة. بعدها بمسافة يبدأ الدرج المؤدي إلى القصر؛ درج عريض جداً من الرخام الملون اللماع..

راح يصعد الدرج وهو ينظر إلى حذائه غير الوجيه... وحين وقف أمام باب الصالون، اضطرب... فهل يخلع حذاءه أم يدخل به؟ وقد ظهر الصالون أضخم مما في

خياله. أربكته الهالة الضوئية من الثريا المعلقة وراح يحدق في الضيوف المصطفين وقد أخذ بعضهم يتحدث إلى بعض في همس. أراد أن يذهب إلى صدر المجلس ولكنه تردد وارتبك فبدأ بالسلام من الشمال... صار يسلم عليهم واحداً واحداً وأخذ بعضهم يقوم، والبعض الآخر كأنه يستعد للنهوض وهو لا ينهض. شعر برغبة في التوقف خاصة أن أحداً لم يعرّفه إلى الحضور. لكنه صار يعرّف عن نفسه ما بين فترة وأخرى، وقد أخذته فرحة عارمة حين حياه أحدهم بصوت مسموع بعد مشوار طويل من الصمت... وظل يحيي إلى أن انتهى من جهة اليمين عائداً من حيث بدأ عند المدخل، ثم وقف قليلاً ينظر ولكن أحداً لم يفسح له مكاناً في المجلس... فسار بنفسه إلى أقرب كرسي فارغ وجلس.

راح يحدق في الوجوه ويبتسم ولكن لا أحد يبتسم له. أهو مجهول إلى هذه الدرجة؟ ولكنه أدرك أن هؤلاء ليسوا جمهوراً عادياً. فهم وزراء، وسفراء، ومدراء شركات وبنوك وأصحاب رؤوس أموال!!

حينما وقف الوجيه قادماً من الداخل ليطمئن على ضيوفه وقف هو رأساً فعرج عليه الداعي وحياه قائلاً: أعرفكم على الأديب: ط. ز.

رمقته العيون لحظة مع بعض هزات الرؤوس ثم عاد

الجميع إلى ما كانوا فيه، كل يتحدث إلى جاره بصوت خافت وأحياناً بصوت يكاد يكون مسموعاً. شعر بالفراغ والقلق، فالتفت إلى الشخص الذي بجانبه قائلاً: أهلاً كيف الحال؟ رد عليه: بخير!!

ثم تركه في تجاهل مستفز، وانصرف يتحدث إلى الذي بجانبه!! شعر بقرقرة في بطنه فزاد ارتباكاً وضجراً.

راح يستجمع قواه، ويحاول المحافظة على توازنه وثقته بنفسه. فلأول مرة يشعر بهذا الاضطراب النفسي وبهذا الانخذال! تمنى أن يقف أمام الجمع ويردد بيت المتنبي:

«أنا الطائر المحكي...».

ولكنه احتقر الفكرة والبيت والمتنبي جميعاً. أحس بهوان داخلي ولعن الدعوة والساعة التي قادته إلى هذا المكان. قال في سره: يا لها من أنفس بليدة. لماذا هؤلاء منفوشون هكذا؟ ماذا تحمل هذه الرؤوس غير الخواء والروتين الغبي، والبيروقراطية المعقدة، وفخفخة المنصب. أي ثقافة، أي معرفة، أي فكر؟!

ولكنه شعر بحالة من الازدراء تندلق في نفسه، وندَّت عنه آهة ندمَ عليها وحاول كتم ما بقي منها. أنقذه وقوف الداعي طالباً توجُّه ضيوفه إلى المائدة. قام المدعوون في بطء وتثاقل وانطلق شخص ـ لا شك في أنه مهم جداً ـ

من صدر المجلس وهو يحك قفاه، وتبعه الآخرون في طوابير ودفعات... وقد آثر أن يكون في آخر دفعة كي يلوذ بحمايتها، فقد شعر بأنه طائر في غير سربه وهو يبحث عمّن يقبل بوجوده ويلاطفه ولو بابتسامة مجاملة!!

راعه منظر المائدة الطويل والخدم بزيهم الموحد، وقفازاتهم البيضاء، وهم يدورون فوق رؤوس المدعوين... تذكّر شقته البائسة التي تعج برائحة الكتب، والعث.

كثر اللغط حول المائدة وتحلل المدعوون كثيراً من تزمّتهم، وصار يسمع ضحكات، بل صار يسمع ألفاظاً وعبارات غريبة أدرك أنها خاصة بهذا الوسط، فهو لا يفهم معانيها... وتمنى أن يفهمها حتى وإن كانت ساذجة بل وتافهة... حيث - في تلك اللحظة - اعتبر أن من كمال الوجاهة أن يفهمها.

وتنفس الصعداء حين سأله أحد الجالسين: ما رأيك يا أستاذ في رواية: جون مايكل «الأسماك السوداء»؟ اللعنة! ما هذه الورطة؟ كل شيء توقعه إلا هذا! من هو جون مايكل هذا وما هذه الرواية؟

ولم يدع له السائل فرصة الرد أو التفكير بل تابع: إنها رواية عظيمة، أليس كذلك؟ الحقيقة... الحقيقة... راح يردد، ولكن السائل تابع: لقد مُثّلت فيلماً رأيته في سان فرانسيسكو منذ شهر. إنه فيلم رائع.

كحَّ وسعل: الحقيقة... الحقيقة!!

وتابع السائل: لقد قام بدور البطل الممثل سميث فانكو.

هز رأسه: رائع... رائع! نعم، نعم، رائع!! ما هذا الداهية؟ ألم يحلُ لابن الحرام هذا أن يسألني إلا عن جون مايكل هذا؟ وحاول أن يجد مخرجاً وأن يتملص، ولكنه أُسقط في يده، وشعر بمرارة اللقمة في حلقة، وازدرى نفسه وثقافته كُلَّها. ومن حسن الحظ أن السائل لم يتابع، فقد كان سؤاله استعراضياً ولم يكن سؤالاً نقدياً، وسرعان ما اتجه السائل إلى جاره في حديث آخر وشأن آخر.

من شدة خجله من نفسه راح يتخيل أنه تحول إلى طفل، أو أن به عاهة مشينة. بل شعر لأول مرة بأنه مريض، وجبان. أبَعْدَ هذا العمر من الأدب والثقافة يتحول أمام نفسه إلى قشة في مهب هؤلاء؟! شعر بأنه كان مغروراً ومخدوعاً بنفسه، وأن ثقافته هراء في هراء، فهي لا تسمن ولا تغني من جوع ولا من وجع. ها هو يتحول إلى فقاعة أمام لهب هؤلاء القوم الشرسين. ماذا يعني أن يكون الإنسان فناناً أو شاعراً أو ناقداً أو كاتباً؟ إنها حرفة التعساء والبائسين، بل والأغبياء! ما معنى أن تكون أديباً؟ الحقيقة هي أن تكون تاجر هرج! ما الفرق بين الأديب والمهرج والبهلوان؟ كلها في النهاية هرج في هرج! حقاً، ماذا تعني كلمة أدب أمام لغة هؤلاء العتاة؟

نهض أحد المدعوين، فتتابع الآخرون في القيام عن المائدة. أراحه ذلك كثيراً وشعر بنسمة تسري في داخله. تقاطر المدعوون إلى المغاسل، ووقف الداعي يحييهم وهم يشكرونه، ثم يمضون إلى بهو واسع. أما هو فقد وقف أمام الداعي شاكراً ثملاً بلحظة الفرار، طالباً السماح له بالانصراف، ولكن الوجيه ردد وهو يأخذه بيده: لا يمكن... لا يمكن... وتبع مضيفه إلى البهو الفخم في إذعان قهري وهو شبه مخدَّر. تحلق المدعوون على الأرض في الفناء الواسع حيث الزرابي مبثوثة، يتكئ الجالسون عليها متى شاؤوا، وحيطان البهو مزينة بلوحات راقية لكبار الفنانين، وفي كل واجهة من واجهات البهو السداسية تلفزيون ضخم جداً لم ير مثيلاً له من قبل، قائم على منصة مرصوصة أدراجها بأشرطة الفيديو. وقد فُرشت أرضية البهو بالسجاد الشيرازي والصيني الرفيع. وتقوم على إحدى الواجهات مكتبة، كل الكتب التي تزدان بها مجلدة، تلوح ألوانها المرتبة وعناوينها المذهبة فتملأ العين رهبة!!

جلس شبه منفرد وقد توزَّع الضيوف يلعبون الورق، وراح ينظر، وينصت:... العب... عشرة... صن... بس... سرا... تتعالى ضحكات، واحتجاجات... وشتائم! في الدائرة الأخرى أصوات شبيهة... وكان أحدهم يقول: هل سمعتم آخر نكتة؟ واحد سأل آخر: ماذا تقول في القومية؟ فأجاب:

قوم مَيّه... هاهاهاها هاه... وتختلط الضحكات. يتناهى إلى سمعه صوت من ضيف آخر: مئة مليون فقط، يرد الآخر: لا، مئة وعشرون... لا، لا، هذا كثير... ويصيح البقية: معقول... معقول. يرد: طيب، طيب... يا جماعة موافق.

وينبعث صوت آخر: الوظيفة «يا أبو عادل» اللي وعدناها الرجال؟

ـ أبشر! خلِّيه يمر على مدير المكتب صباحاً... ونم... انس...

ـ تعيش والله «يا أبو عادل».

ويأتيه صوت من جهة أخرى:

ـ جنيف... لا «كان» أحسن...

ـ لا «كان» ولا جنيف.... أنا مصيّف في ساندياجو..

ضجة: يا سلام.

مجموعة أخرى تحلقت حول التلفزيون تتابع برنامج مسابقات، وكان أحد الأسئلة من الشاعر الذي يقول:

ولما رأيتُ الجهل في الناس متفشياً

تجاهل حتى ظن أني جاهل

التفت إليه أحد الضيوف وقال: من صاحب البيت. فرد هو أولاً: بيت القصيدة ليس هكذا. لقد أخطأ المذيع... فالبيت يقول:

ولما رأيتُ الجهل في الناس فاشياً

تجاهلتُ حتى ظُنَّ أنيَ جاهلُ

وقائل البيت هو المعري.

التفت أحدهم وقال:

ـ وهل أنت أدرى من المذيع يا استاذ؟

وآثر أن يظل صامتاً فلا يرد.

في نهاية السؤال أعلن المذيع أن البيت للمتنبي!!

نظر إليه أحد المتابعين وقال: البيت للمتنبي يا أستاذ... أم أن المذيع أخطأ أيضاً؟!

لم يرد هذه المرة أيضاً، ولكنه شعر بألم عميق ووقاحة جائرة!

راح يحدق في الأشياء والوجوه في ذهول وكأنه مفصول عن العالم. لا يمكن أن يكون مكانه بين هؤلاء القوم. لقد وُجد بينهم خطأً.

راح يكلم نفسه: ما هذا؟ أيمكن أن يتحول الإنسان إلى كتلة من الدهشة والذهول والارتباك الذهني إلى هذه الدرجة. ما هذا العالم؟ وما هذه الناس؟ بل وما هذه الحياة؟

تُولد من رحم الأقدار أشياء تثير الدهشة والعجب. وتنبت من أعماق البحار ألوان من الطحالب والنباتات التي

لا تخطر على بال من لا يراها. وتظهر في ثنايا الكتب حكايات وقصص لا تُصدَّق... ولكنها مطلقاً لا تشبه هذا المناخ الذي أنا فيه.

اعترته سطوة جبارة من الحيرة أخذت تدوخه وتحول كل الأضواء والأشياء أمام عينيه إلى لون صفراوي باهت... إلى مناخ ملوث قميء تشع منه رائحة قاتمة ولئيمة. مرت لحظات كالدهور أو كالحلم الشيطاني ولم يتنبه إلى نفسه إلا بعد أن انفض الجمع، وأخذوا يودعون مضيفهم أمام بوابة القصر.

انحشر في سيارته القديمة وقد طافت به حمى من الخجل أمام هذه السيارات الفارهة المصطفة أمامه يتسابق الخدم إلى فتحها. سار في الطريق وهو يكز على أسنانه تارة، وتارة يهذي ويضحك، وتارة يضرب بانفعال على مقود السيارة، وتارة يدعس على كابس البنزين فتصرصر عجلات السيارة... وأحياناً يضحك ثم ينخذل!

ـ لم أتوقع أن الأدب عاهة وسبة إلا هذه الليلة!! ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن أحتقر فيه نفسي وحرفتي!!

لا، لا، أنا أبالغ. لا، لا، أنا أعاني من خلل ما! ليس العيب في الأدب. الأدب أرقى شيء في الوجود، إنه عمل الخلود، والذوق الإنساني الرفيع. كل الذي رأيته الليلة زيف

في زيف. كله هراء في هراء. ثم ماذا أن أكون تاجراً أو وزيراً إذا كنت وحشاً لا يجيد إلا لغة الأقوياء والمتسلطين؟ أنا نصير المستضعفين. بقلمي أحارب القسوة والظلم والكراهية. كلمة حق أثمن وأنفس من جميع ما يملكون. بيت من الشِّعر يلغي هؤلاء جميعاً. أين الملوك؟ وأين الزعماء؟ وأين التجار عبر التاريخ؟ أينهم من المتنبي، وامرئ القيس. أين هم من الجاحظ، والمعري؟! أين... أين؟

كان قد بدأ يشعر بمرارة تتسرب إلى حلقه... وبفتور في أعضائه. يشمئز ويبصق في الهواء: توافه، كلهم تافهون... لو كان لي من الأمر شيئاً لحشرت هؤلاء... هم وقصورهم وسياراتهم وحشمهم ونساءهم وكل ما يملكون، في جهنم!!

أنا... أنا خير من هؤلاء جميعاً... صحيح أنني جلست بينهم كالكلب... أعوذ بالله، لا لست كلباً. ما هذا؟ يا ساتر... لماذا أحتقر نفسي؟ أنا شاعر... ديواني أكبر مفخرة... هم الكلاب.

ولكن ديواني ابن الكلب لم يشفع لي هذه الليلة... لا، لن أعود لألوم نفسي. لو رآني هؤلاء في محفل أدبي لرأوا كيف يكونون صغاراً أمام كبريائي وضخامتي... أنا بينهم مثل الذهب في الرغام... أو كصالح في ثمود... ولكن هل يفهم هؤلاء؟ هل يفهم الناس قيمتي؟ ماذا لو سرت مع أحد

هؤلاء في شارع؟! من الذي سيقف له الناس إجلالاً وتعظيماً؟ لا شك في أنه أحدهم، أما أنا فسوف أندس بين الناس في هزال... يا للمهزلة... مهزلة التاريخ والأيام... مهزلة الزمن الرديء... مهزلة أن تكون مثقفاً بين أسماك القرش وعجول البحر!

دخل بيته وقابل زوجته بوجه ممتقع عابس. راح يحدثها بحزن وألم عما شاهد ورأى... يحدثها بألم... وشيء من الدموع بسبب ذله وهوانه في هذه الدعوة المشؤومة. استمر يحدثها... ثم سكت... وراحت تستحثه على الحديث... ولكنه صمت بما يشبه صمت القبور.

أحس أنه يصعد جبلاً شامخاً من الرمل، وأن جميع أعضائه موهنة، وميتة أو تتفتت، وقلبه يتدحرج في صدره ككرة من الرصاص. شعر بكرات صفراء من الحنظل والحزن تتفجر في حلقه.

رأسه أصبح ثقيلاً كبرج من طين.

وفجأة أخذ يبكي... ثم أخذ يضحك ضحكاً عالياً يدوي في فضاء الغرفة.

راحت زوجته تخفف عنه: لماذا أنتَ مكروب هكذا؟ لا تنس أنك فوق كل هؤلاء الدواب. أنت أديب مرموق. إذا لم تكن صاحب مال، وقصر، ومركز، فأنتَ صاحب قلم

وفكر. إذا كنت لم تجد اليوم الاهتمام الذي يليق بكَ من هؤلاء فلا تنسَ أنكَ معروف في دنيا الأدب. لن يضيركَ مطلقاً ألّا يعرفك هؤلاء حق معرفتكَ. لماذا تهتز هكذا ـ كانت أنفاسه تتتابع... ودرجة حرارته ترتفع ـ لا بأس. لا بأس. هذا هو شأن العباقرة والعظام... ألست دائماً في ما تكتب تدعو إلى الفضيلة والنزاهة والصلابة في قول الحق؟ ألست تدعو دائماً إلى الشجاعة أمام مغريات الحياة وزخرفها، وتحرّض دوماً على محاربة الشر والفساد؟

ردَّ في ضعف: أنا لم أفقد الثقة بنفسي، ولم ولن أحيد عن موقفي. بل بالعكس. ما رأيت الليلة زاد إصراري على الاستمرار فيه... لكنه سبّب لي وجعاً لا أعرف مصدره. نار عارمة تجتاحني، وضغط عنيف يكاد ينفجر له رأسي. أحسّ كأن قلاعاً ضخمة تنهار وتتقوَّض في داخلي.

لا تبتئس... لا تبتئس... هذا إحساس الفنان المرهف حينما يجابهه سخف الحياة... والأحياء.

ذهبَتْ عاجلاً ثم عادت وهي تحمل كوباً من الماء... وحين دنت منه كان قد أغمض عينيه ومات!!



• كل أقصوصة، بلا استثناء، مرثية ترثي حقبة أجمل من هذه الحقب... وأشد براءة وطهراً وطفولة... لا تصدقوني؟ ادخلوا معي إلى عالم الكتاب.

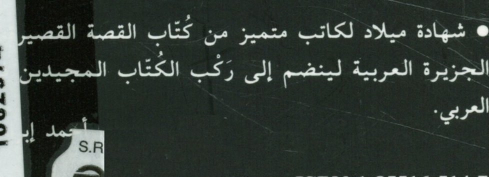
غازي القصيبي

• من أجمل القصص التي قرأتها باللغة العربية، وهي قصة مكثّفة داكنة مقلقة، مثل حلم مزعج، لخص فيها الكاتب كل ما أراد أن يقوله في بقية القصص، من تشبث بالأرض وخوف على العالم الجميل المألوف من وطأة التكنولوجيا و(التمدن)، ثم إحساس الإنسان - الكائن الحي - بالوحشة والعزلة في عالم لم يعد ثابتاً، ولم يعد مضموناً.

الطيب صالح

• أحببتُ... تلك اللغة العربية الجزلة، المتينة، والثقافة الروحية والإنسانية، وجماليات الحنين إلى الوطن، والخامة الثرية فنياً.. والتوهج من الذكاء.

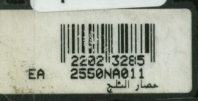
غـ



• شهادة ميلاد لكاتب متميز من كُتاب القصة القصير
الجزيرة العربية لينضم إلى رَكْب الكُتّاب المجيدين
العربي.

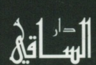
أحمد إبـ

ISBN 1 85516 514 7









DAR
AL SAQI
دار الساقي